رواية

يالو

الياس خوري

لم يفهم يالو ماذا يجري.

وقف الشّاب أمام المحقّق وأغمض عينيه، وكذلك كان يفعل دائماً. يغمض عينيه حين يواجه الخطر، ويغمضهما حين يكون وحيداً، ويغمضهما حين أمّه... في ذلك اليوم أيضاً، صباح الخميس ٢٢ كانون الأوّل ١٩٩٣، أغمض عينيه بحركة لا إراديّة.

لم يفهم يالو لماذا كلّ شيء أبيض.

رأى المحقّق الأبيض، يجلس خلف طاولة بيضاء، والشمس تنكسر على النافذة الزّجاجيّة وراءه، ووجهه يغرق في الضوء المعاكس. لم يرَ يالو سوى هالات من الضوء وامرأة تمشي وحيدة في شوارع المدينة وتتعثّر بظلّها.

أغمض يالو لحظة، أو هكذا اعتقد. كان هذا الشاب بحاجبيه المقفلين ووجهه الأسمر المستطيل، وقامته النّحيلة الطويلة، يغمض عينيه لحظة قبل أن يفتحهما ويرى. لكنّه هنا، في مخفر جونية، أغمض عينيه فرأى خطوطاً تتقاطع عند شفتين تتحرّكان بما يشبه الهمس. نظر إلى يديه المكبّلتين، وأحسّ أن الشمس التي تمحو وجه المحقق تضربه في عينيه، فأغمضهما.

وقف الشاب أمام المحقّق في العاشرة من صباح ذلك اليوم البارد، ورأى شمساً تنكسر على الزجاج، وتشعّ في رأس الرّجل الأبيض، الذي فتح فمه بالأسئلة، فأغمض يالو عينيه.

لم يفهم يالو لماذا صرخ به المحقّق.

سمع صوتاً يصرخ به : «افتح عينيك يا رجل»، فتحهما، دخل الضّوء إلى أعماقهما

مقتطفات من رواية ستصدر قريبا

مثل أسياخ ملتهبة، فاكتشف أنّه أغمض عينيه طويلاً، وأنّه قضى نصف عمره مغمضاً، ورأى نفسه كالأعمى ورأى اللّيل.

لم يفهم يالو لماذا أتت، لكنّه حين رآها سقط على الكرسيّ.

حين دخل إلى الغرفة لم تكن تلك الفتاة التي لا إسم لها.

دخل بخطوات متعثّرة لأنّه كان عاجزاً عن الرؤية في ضوء الشّمس المنكسر على الزجاج. وقف داخل البياض، يداه مكبّلتان وجسمه يرتعش بالعرق. ولم يكن خائفاً، رغم أنّ المحقّق سوف يكتب في تقريره أنّ المتّهم كان يرتعد خوفاً. لكن يالو لم يكن، كان فقط يرتجف بالعرق. كان العرق يتصبّب من كلِّ أنحائه، وثيابه تتبقّع بالسائل الذي يخرج من مسامه، وله رائحة غريبة. شعر يالو أنّه يتعرّى داخل معطفه الأسود الطويل، وشمّ رائحة شخص آخر. واكتشف أنّه لا يعرف هذا الرّجل الذي يُدعى دانيال، ويلقّبونه يالو.

جاءت تلك الفتاة التي لا اسم لها. ربّما كانت هنا في غرفة التحقيق، لكنّه لم يرها حين دخل. رآها فسقط على الكرسيّ، وشعر أنّ رجليه تخونانه، أخذه دوار خفيف، وصار عاجزاً عن فتح عينيه، فأغمضهما.

صرخ به المحقّق : «افتح عينيك يا رجل». ففتحهما، ورأى طيفاً يشبه تلك الفتاة التي لا اسم لها. هي قالت أن لا اسم لها. لكنَّ يالو عرف كلّ شيء. تركها تغفو قرب جسدها المنمنم العاري. فتح حقيبتها الجلديّة السوداء، وكتب الاسم والعنوان ورقم الهاتف وكلّ شيء.

لم يفهم يالو لماذا قالت إنّه لا اسم لها.

كان تنفُّسها يرتجف، الهواء حول وجهها كأنّه يخنقها، وكانت عاجزة عن الكلام، لكنّها استطاعت أن تقول تلك العبارة : «أنا ما إلي إسم». فأحنى يالو رأسه وأخذها.

هناك في الكوخ، أسفل ڤيلّلا «غاردينيا» التي يملكها الأستاذ ميشال سلّوم، هناك حين سألها عن اسمها، قالت بصوت مليء بفجوات نقصان الهواء التي تغلق الرئتين : «أنا ما إلي اسم، دخيلك بلا أسامي». فقال : «طيّب، أنا إسمي يالو، ما تنسي إسمي».

لكنّها تقف هنا وإسمها إلى جانبها. وحين سألها المحقّق عن إسمها لم تتردّد في الجواب، «شيرين رعد»، قالت. لم تقل للمحقّق «دخيلك بلا أسامي»، ولم تمدّ يديها إلى الأمام، مثلما فعلت هناك في الكوخ، حيث نام معها يالو بعد أن مدّت يديها وأشرقت منهما رائحة البخور. أخذ كفّيها، وأغلق بهما عينيه، ثمّ بدأ تقبيل زنديها الأبيضين، وشمّ رائحة بخور ومسك. شمَّ رائحة شعرها الأسود، وأغرق فيه وجهه وسكر. قال لها إنّه سكران بالبخور، فابتسمت، كأنّ القناع انزاح عن وجهها. رأى يالو ابتسامتها من خلال الظلال التي صنعها ضوء الشّمعة على الحائط. وكانت هذه ابتسامتها الأولى في ليلة الخوف تلك.

ماذا تفعل شيرين هنا؟

عندما فتح عينيه بعدما صرخ به المحقق، رأى نفسه في بلّونة. قال لها تعالي، فمشت خلفه. مشيا من غابة الصنوبر التي تقع تحت كنيسة مارنقولا، وتسلّقا التلّة إلى القيلّلا. الفتاة سقطت أرضاً، أوهكذا بدا ليالو، فانحنى يلمّها، أمسكها من يدها ومشيا، وحين سقطت للمرّة الثانية، انحنى فوقها من جديد من أجل أن يحملها، لكنّها تملّصت من يديه. وقفت، أمسكت جذع شجرة صنوبر وجمدت في مكانها، وكان لهاثها مرتفعاً. أعطاها يده فأمسكتها، ومشت إلى جانبه، وكان يستمع إلى صوت تنفّسها ولهاث خوفها.

وحين وصلا إلى الكوخ، تركها أمام الباب، دخل وأضاء شمعة، حاول ترتيب ثيابه وأغراضه المبعثرة، لكنّه اكتشف أنّ هذه المهمّة تحتاج وقتاً، فعاد إليها ليجدها قد أسندت رأسها إلى درفة الباب المفتوح، وهي تصدر أصواتاً تشبه البكاء.

«ما تخافي»، قال لها، «تعالي، ستنامين هنا، سأفرش لك على الأرض، ما تخافي».

دخلت متردّدة، وقفت في وسط الغرفة، كأنّها تبحث عن كرسيٍّ تجلس عليه. قفز يالو، انتزع بنطلونه عن الكرسيِّ ورماه على طرف السّرير، لكنّها لم تجلس، بقيت واقفة وحائرة.

«بتشربي شاي»؟ سألها.

لكنّها بدل أن تجاوب مدّت يديها كالمستغيثة. وحين أمسك يالو يديها الممدودتين، ورأى الخوف يتحوّل دوائر متداخلة في عينيها الصغيرتين، تراجع إلى الوراء. قال إنّه خاف، سوف يقول إنّه شعر بالخوف، لكنّه في تلك اللحظة لا يدري، فهو لم يشعر أنّه شعر بالخوف قبل أن يكتب تلك الكلمة. قالها فأحسّ بها، ثمّ كتبها. وهو اليوم، حين يتذكّر العينين الصغيرتين في ظلال ضوء الشمعة، حين يرى كيف بدأ البؤبؤان يصغران ويتحوّلان دوائر متداخلة، يشعر بالخوف، ويقول إنّه خاف من عينيها.

حين تراجع رآها تتقدّم نحوه. كانت يداها معلّقتين في الهواء، كأنّها تستنجد به، أو تطلب مساعدته. اقترب منها، أخذ كفّيها وأغلق بهما عينيه فهدأت. أمسك يديها، فأحسّ ارتجافة تسري فيهما، كأنّ خطوط الخوف التي كانت تنبض في داخلهما صارت كالشرايين التي تنقل توتّراً يسري في الجسد كلّه. وضع كفّيها على عينيه، ورأى الظلام، وشعر كيف بدأ جسدها يسكن ويهدأ، وطلعت رائحة البخور.

«شو هالرّيحة الحلوة»؟ قال يالو. متراجعاً إلى الوراء. جلس على الكرسيّ، وغطّى وجهه بيديه كأنّه شعر بالتعب، وبقي جالساً دون حراك. وكانت الشمعة تترنّح بضوئها الذي يرتجف بهواء الصنوبر الطالع من الغابة. وكانت الفتاة التي لا اسم لها تقف إلى جانبه وتستعيد الهواء الذي سرقه الخوف منها، حين رأت الشبح الأسود يقترب من السيّارة المتوقّفة على زاوية حرج الصنوبر، تحت الكنيسة الأرثوذكسية.

لماذا تلبس تنّورتها القصيرة، وتظهر فخذيها؟

تجلس الفتاة أمام المحقّق، بتنّورتها الحمراء القصيرة، وتضع رجلاً على رجل، وتحكي كأنّها تبتلع هواء غرفة التحقيق كلّه.

قال لها يالو أن لا تلبس تنانير قصيرة. «شو هيدا، ولو»! لكنّها لم تجاوب. نظرت إلى ركبتيها حيث كان ينظر، وارتسمت سحابة ابتسامة على شفتيها، وهزّت رأسها. خرجا معاً في الصباح، أوقف لها سيّارة تاكسي إلى بيروت، وعاد إلى كوخه.

لكنّها تجلس الآن، وتلبس تلك التنّورة نفسها، أو تنّورة تشبهها، وتضع رجلاً على رجل، وتحكي دون أن تتلعثم أو تتأتئ مثلما فعلت هناك.

كانا في السيّارة كظلّين. لم يرَ يالو الرابض على قمّة تلّته منهما سوى الشعر الرماديّ الذي يغطّي رأس الرّجل. أطلق يالو ضوء بطّاريته على السيّارة كمن يُطلق الرّصاص. كان يشعر، عندما يتسلّل بين أشجار الصنوبر، حاملاً بندقيّة الكلاشينكوف الروسيّة، والبطاريّة، أنّه ذاهب إلى الصيد. كانت السّيّارات أفخاخاً لطرائده. وكان مثل صيّاد العصافير، يعرف المواسم، ويتمتّع بها. وهذا ما حاول شرحه للمحقّق. قال إنّ المسألة بالنّسبة إلى صيّاد مثله، لم تكن السرقة أو النساء، بل المتعة. متعة صيد الحبّ المسروق داخل سيّارات مقفلة النّوافذ، ومتعة اللحظة الأولى، لحظة سقوط الضّوء على الوجهين، أو على يد تمتدّ إلى الفخذين، أو على رأس ينحني للنهدين الخارجين من ثنايا الثوب.

الضوء الذي يطلقه يالو، يصيب الهدف مباشرة. لم يكن يالو يتلاعب بالضوء، كان يضرب في المكان المناسب، منذ اللحظة الأولى. وحين كان الضوء لا يصيب هدفه، تكون المغامرة قد فشلت، فيعود أدراجه، أو يكمن في انتظار أن تمضي السيّارة، فينسحب بهدوء مجرجراً فشله خلفه.

الضربة الأولى أو لا شيء. هذه كانت عقيدته في الصيد. وأجمل شيء بالنسبة إليه كان الشعر الرمادي الذي يشتعل بالضوء. أجمل اللحظات كانت رؤوس الرجال المغطّاة بالشعر الأبيض وهي تنحني فوق نهد أو فخذ. كان ضوء البطّاريّة يخترق الشعر الأشيب ويشعله بالضوء ويجمّده في مكانه. الضّوء يتغلغل في الأبيض المنحني ويرسم حوله دائرة كاملة. يرتفع الضّوء عن الشعر الرّماديّ، ويذهب إلى الجهة الثانية، ويرسم العيون، فتنبثق عينا المرأة المفتوحتان على مزيج الخوف والشهوة.

ويقترب الضّوء. ينزل الشبح، بعد أن يفتح ضوء البطّاريّة ويتركه ينتشر على السيّارة. في لحظات الصيد الأولى، كان يالو يركّز الضوء ويجعله حادّاً ورفيعاً وأشبه بخيط. أمّا بعد أن تجمد العيون فكان يفتح الضوء ويبعثره ويهبط. يقترب من النافذة المقفلة ويقرعها ببوز البندقيّة، فينفتح الشبّاك على الهلع. يقترب رأس الشبح من نافذة

الرّجل، لكنّه لا يسمح لعينيّ المرأة بأن تغيبا عن عينيه الصقريّتين المفتوحتين على أقصى الظلام. يرى في العتمة، ويبعثر ضوء بطّاريته، فتعلو الظلال. يقترب داخل الظّلال، ويقرع النافذة ببوز بارودته، ويأمر بفتحها. ينظر في عيني المرأة، ويتأمّل اتّساع العيون على الخوف واختفاء البؤبؤين. ثمّ ينسحب بهدوء حاملاً غلّته : ساعة يد، خاتم، سلسلة ذهبيّة، إسوارة، وقليل من الدولارات، ولا شيء آخر. بلى، مرّة طلب من رجل خلع ربطة عنقه، لأنّ شعر بأنّ الخوف قد يخنق الرّجل بتلك الربطة التي تدلّت فوق الحزام المفتوح، وكأنّها حبل مشنقة. ومرّة طلب من امرأة أن تعطيه شالها الأصفر، هكذا دون سبب. لكنّه لم يكن يريد أكثر، الأكثر كان يأتيه دون عناء أو تعب. لم يكن يالو يسعى إلى الأكثر، لكنّه كان يأخذه حين يأتي، لأنّه تعلّم من عذابه في تلك المدينة التي إسمها باريس، أن لا يرفض النعمة.

أمّا مع شيرين، فقد كانت الأمور مختلفة.

لماذا تقول إنّه اغتصبها في الغابة؟

«أنا لم»، قال يالو، لكنّه سمع صراخ المحقّق :

«أنت اعترفت يا كلب، وهلّق بتقول لا، بتعرف شو بصير بالكذّابين».

لكن يالو لم يكن يكذب. صحيح أنّه وافق على أنّ ما قام به يمكن أن يُسمّى اغتصاباً، لكنّه... لكن المسألة لم تكن تلك الليلة. شيرين لم تقدّم شكوى ضدّه من أجل تلك الليلة، بل من أجل الأيّام التي تلت.

معها، هناك، كانت الأمور مختلفة. ويالو لم يكن يعرف الكلمات المناسبة كي يقول لها إنّ رائحة البخور التي ارتفعت من زنديها، في تلك الليلة، انتشرت فوقه مثل غمامة بيضاء، ثمّ انحدرت لتستقرّ في عموده الفقريّ.

حين قال لها إنّه يحبّها من عموده الفقري، بعد ثلاثة أشهر على حادثة الحرج، غرقت في الضّحك حتى سقط الدّمع من عينيها، وصارت تتمخّط دون توقّف. اعتقد في البداية أنّها تبكي، فانحنى فوق الطاولة المليئة بالمازات في مطعم «البير» في الأشرفيّة، لكنّه حين دنا منها اكتشف أنّها تضحك.

«عم بضحك عليك»، قالت، «أنت مجدوب، طول بلا غلّة، شو هالحكي الترسو».

وصارت تتكلّم بالإنكليزية لتقول له : «فينيش، يومست أندرستاند، أفريثينك إذ فينيش».

قال إنّه لا يفهم الإنكليزيّة، فقالت بالفرنسيّة : «سي فيني مسيو يالو».

«شو هو الفيني؟» سأل.

«هالقصّة». قالت.

«يعني بدّك تفنشيني»، قال.

«دخيلك يا مسيو يالو، أنا ما بقدر ضلّ هيك، دخيلك حلّ عنّي وخلّصني، خلّينا

نتفاهم، قول شو بدّك وأنا بِأَمرَك».

فتحت حقيبتها وأخرجتَ كمشة دولارات.

لماذا قالت للمحقّق إنّه صفعها لأنّها رفضت أن تأكل؟

لا، لم يصفعها لأنّها رفضت أن تأكل العصافير، مثلما ادّعت أمام المحقّق.

«حدن بياكل موسيقى!» قالت، حين رأت صحن العصافير المقليّة التي تسبح في مرق مصنوع من الحامض والثّوم.

«أنا ما باكل عصافير، هيدا حرام».

أعدّ يالو لقمة مؤلّفة من عصفور صغير. لفّ العصفور بالخبز، غمس الخبز بالمرق، وأدنى اللّقمة من فمها.

«نو، نو، الله يخلّيك».

لكنّ اليد التي تحمل العصفور المغطّى بالخبز ظلّت ممدودة، ثمّ بدأت تقترب من الفم وتحوم حوله، قبل أن تغطّ على الشفتين المقفلتين. فتحت الفتاة فمها، وبدأت تمضغ، فيما عضلات وجهها تتقلّص بشدّة.

ابتلعت العصفور وتوقّفت عن الأكل والكلام.

تابع يالو شرب العرق والنظر إلى وجهها. كان وجهها الصغير كأنّه قمر أبيض معلّق فوق عنقها الطويل. أراد أن يخبرها عن القمر. أراد أن يروي لها كيف اكتشف القمر والنجوم ودرب التبّانة الذي يشبه مسحة من الحليب في السماء، هناك في بلّونة، في أسفل القْيللا التي قاده إليها القدر من باريس. لكنّ خاف من أن تضحك عليه.

«هيئتك ما بتحكي بالعربي، وما بتحبّي عبد الحليم حافظ».

قال لها ذلك أو شيئاً من هذا القبيل، لكنّها لم تجاوب. بقي القمر الصغير الأبيض جامداً فوق العنق الطويل، ثمّ انهمرت الدموع من عينيها. أمسكت محرمة ورقيّة، ومسحت دموعها وتمخّطت. لكن الدموع لم تتوقف. فبدأ يروي لها الحكايات عن «العندليب الأسمر» وعن سعاد حسني وشادية، وعن أغنية «جبّار» التي يحبّها كثيراً.

قال لها إنّه صار يحبّ شعر نزار قباني من أجل عبد الحليم حافظ، وأنّ «رسالة من تحت الماء»، حين يغرق الرّجل تحت ماء الغرام، هي أجمل قصيدة سمعها في حياته. وأنّه لم يقتنع بأنّ عبد الحليم لم يكن هو مَن يكتب كلمات أغنياته إلاّ حين قرأ ذلك في الجريدة.

«مش ممكن يا شيرين، الكلام بدوب بتمّه مثل السكر، كأنّو بيخلّلي الكلام يصير خيطان مغزولة غزل، مش ممكن ما يكون هو يلّلي ألّف قصيدة، وبعدين اقتنعت، ورحت واشتريت كتاب اسمه «الرّسم بالكلمات»، بس ما فهمت ولا كلمة، الشعر ما بيزبط إلاّ لمّن بغنّي عبد الحليم، إنت ما بتحبّي عبد الحليم»؟

كان القمر ساكتاً، والتقلّصات العضليّة تجتاحه، ورأى العينين الصغيرتين المعلّقتين

فوق تلك الصفحة المستديرة البيضاء.

يالو لم يلاحظ أنّ عينيها صغيرتان قبل أن يأتيا إلى مطعم «البير». هناك في بلّونة رأى، لكنّه لم يرَ، لأنّ الرائحة اجتاحته وجعلته عاجزاً عن النّظر.

«بتتذكّري كيف، ما بعرف إنت شو حسّيتي، بسّ هونيك، أنا حسّيت حالي عم بغرق، كانت ريحة البحّور، وكنت مش قادر شوف شي، انّطلعي فيّي منيح حتى شوف لون عيونك».

شيرين اختارت هذا المطعم، ذهبا في سيّارتها «الغولف البيضاء»، جلس إلى جانبها ولم يجد ما يقوله. قالت له على التلفون أن ينتظرها في ساحة ساسين، أمام نصب بشير الجميّل، في الواحدة بعد الظّهر. وقف هناك وانتظر، وكان المطر، لكن يالو لم يتزحزح من مكانه، احتمى من حبال المطر بأجزاء من النّصب، لم يذهب إلى مقهى «تشايس» المجاور. خاف أن لا تجده، خاف أن لا تعرفه، وخاف أن لا يعرف سيّارتها. قالت إنّها ستأتي في سيّارة بيضاء، فوقف تحت المطر منتظراً السيّارة البيضاء التي تجلس في داخلها، وحين أطلّت السيّارة لم يرها. بحلق في كلّ السيّارات، لكنّه لم يرَ، توقّفت السيّارة إلى جانبه، فتحت الباب وأشارت إليه، رآها فسقط على المقعد الجلديّ داخل السيّارة، وامتلأت الأرضيّة ببقع الماء المتساقط من معطفه الأسود الطويل.

«بعدك لابس هالكبّوت؟» سألت.

لم يجد ما يقوله. فلقد لبس هذا المعطف من أجلها، من أجل أن يذكّرها بتلك الليلة. لكنّه كان يكذب حتّى دون أن يحكي. فهذا معطفه الذي لا يطيق فراقه. لبسه في بيروت، ولبسه في ثكنة الحرب قرب العدليّة، ولبسه في باريس، ويلبسه في بلّونة، ولا يطيق خلعه، حتّى أنه كان يكره الصيف من أجله. لكن حتى في الصّيف، كان هذا المعطف لا يفارقه في رحلات الصّيد إلى الحرج. لكنّه لم يجد ما يقوله. خطرت له فكرة العمود الفقري، وأراد أن يخبرها عن الحبّ الذي يفكّك الظهر، لكنّه لم يقل شيئاً. انتظر صامتاً حتى وصلا إلى مطعم «البير». أوقفت السيّارة ونزلا. دخلت أمامه، وجدت زاوية منعزلة حيث جلسا. وقبل أن يفتح فمه من أجل أن يقول لها إنّه مشتاق، مثلما خطّط أن يفعل بعد موافقتها على الخروج معه إلى المطعم، جاء النادل فسألته ماذا يشرب؟

«عرق»، قال يالو.

«عرق»، قالت شيرين متردّدة، «ليش لا».

وبدأ يالو يطلب المازات، وكانت شيرين وكأنّها لا تبالي بأصناف الطعام، أو لا تسمع. ويالو كان متأكداً من أنّ موافقتها على تناول الغداء معه سوف تقودها في النّهاية إلى بيته في بلّونة، أو إلى بيتها في الحازمية.

عندما تحمّم في الحادية عشرة قبل الظّهر، ودلق شعره بالشمبوان الأخضر، ووقف تحت الدّوش السّاخن وأغمض عينيه، رأى شيرين. انهمر الماء فوقه وانهمر حبّه.

أحسَّ بأنّ كلّ شيء يتساقط عن كتفيه، كلّ عمره تساقط تحت الماء الساخن، وأحسّ نشوة غريبة. مارس العادة السريّة دون أن يدري، وتساقط كلّ شيء وجاء إليها. ترك الرّغبة الجنسية في البيت، وجاء هكذا عارياً دون رغبة، وقف تحت الدّوش وأنهى المسألة، ترك رغبته في بيته وجاء إليها بالحبّ. الحبّ وحده قال في نفسه، الحبّ من أجل الحبّ، مثل عبد الحليم. حبّ لا يدري كيف يقوله، لكنّه سيقوله. فهو منذ لقائه الأوّل بشيرين لم يتوقّف عن سماع أغاني عبد الحليم، صحيح أنّه تابع حفلات صيده، لكنّه كان يقوم بها من دون رغبة حقيقيّة. أمّا مدام رندة، فقد توقّف عن مضاجعتها، نام معها ثلاث مرّات فقط خلال ستّة أشهر، وفي كلّ مرّة كانت تضع فيلماً جنسيّاً على جهاز الڤيديو، فلا ينام معها إلاّ عبر الفيلم.

قالت شيرين إنّها ستمرّ على ساحة ساسين وتأخذه بسيّارتها. فركن سيّارة المدام في زاوية «مطعم لالا» للفراريج المشويّة، ومشى في اتّجاه ساحة ساسين.

كان يالو يعتقد أن شيرين لا تملك سيّارة. فحين اصطادها مع ذلك الرّجل الأشيب، الذي انحنى شعره الرّمادي فوق رقبتها، اعتقد أنّها لا تملك سيّارة. الأشيب غادر بسيّارته، وتركها وحيدة مرتجفة في الغابة، ويالو أخذها إلى كوخِه لأنّه لم يكن يملك حلاً آخر.

لماذا قالت للمحقّق إنّه أمرها بالخروج، وطلب من الرّجل أن يغادر؟

«إنّها تكذب يا سيدنا».

عندما قال إنّها تكذب، فرقع الكفّ على خدّه الأيمن، وشعر بدوائر صغيرة بيضاء تخرج من عينيه، وغام كلّ شيء.

صحيح ماذا جرى؟

سوف يقضي يالو أيّاماً طويلة في زنزانته، محاولاً إعادة تركيب الحادثة كما حصلت بالضّبط، لكنّه سوف يفشل.

عندما ضرب الضّوء على الضحيّتين، ثمّ مشى مهرولاً باتّجاههما، لم يسمع شيئاً. كان وقع قدميه وصوت ارتطام جزمته البلاستيكيّة بالأرض يملأ أذنيه. كذلك كان يحصل معه دائماً. يعلو طنين قدميه، فيما يتقدّم من صيده، فلا يسمع شيئاً.

أطلق عليهما ضوء بطّاريّته، ثمّ تقدّم، وعندما وصل إلى السيّارة، رأى الرّجل الأشيب يرفع رأسه مذعوراً، قبل أن يخرج من السيّارة ويقف أمام يالو. نظر يالو إلى الفتاة، وأشار ببوز بندقيّته. إشارته لم تكن أمراً بالخروج من السيّارة، لكنّ الفتاة فتحت الباب وخرجت، فاستدار يالو ومشى نحوها، وفي تلك اللحظة قفز الأشيب إلى السيّارة، وأقلع بها بسرعة إلى الوراء، ثمّ استدارت السيّارة ومضت فوق عجلات تئز بالتراب المتطاير حولها. رفع يالو بندقيّته في اتجاه السيّارة، سحب الأقسام استعداداً لإطلاق النار، أو هكذا أوحى، فسمع بكاء الفتاة. التفت فرأى الفتاة جاثية على الأرض،

وتتنهّد بالبكاء. أحنى بندقيّته ووقف إلى جانبها وسقط الصّمت بينهما.

قاد يالو الفتاة إلى بيته بعد أن طلب منها خلع سكربينتها ذات الكعب العالي. أمسكها من يدها وأوقفها، ثمّ مشى بها، وعندما اكتشف أنّها تتعثّر بسبب الكعب العالي، نظر إلى سكربينتها، ففهمت الفتاة، وخلعتها دون أن يطلب منها ذلك. حملت السكربينتين بيدها اليمنى ومشت إلى جانبه. لكنّها تعثّرت مرّة جديدة وكادت تسقط على الأرض. انحنت كأنّها تسقط، فانحنى يالو فوقها، لكنّها استعادت توازنها ووقفت، فأمسكها من يدها اليسرى، وقادها إلى حيث التمعت رائحة البخّور من زنديها الأبيضين الجميلين.

لماذا كذبت على المحقّق، وقالت إنها كانت مع خطيبها؟ لا يذكر يالو أنّه قال لها أنّ زنديها مثل الرزّ بحليب، لكن هناك في المطعم، وبعد أن صفعها، ثمّ انتهيا من أكل الطعام، طلب يالو رزّاً بحليب. فابتسمت شيرين، لأنّها تذكّرت أنّه قال لها إنّ زنديها أطيب من الرزّ بحليب.

لا، لم يصفعها من أجل العصافير، كما ادّعت أمام المحقّق، بل لأنّها عرضت عليه مالاً، وهو يحتقر المال. أكل درّينة عصافير مقليّة، وشرب نصف قنّينة عرق بلدي، قبل أن يصفعها لأنّها أهانت كرامته.

لا، ليس صحيحاً ما قالته. فهو لم يأمرها بالرّكوع هي وخطيبها. هي ركعت بعد أن غادر الرّجل الأشيب. كما أنّها لم تكن مع خطيبها. فهذا الشاب الذي جلس في غرفة التحقيق لم يكن معها هناك في الغابة.

قالت للمحقق إنّه أمرهما بالرّكوع وصوّب نحوهما بندقيته، وكان يريد قتل خطيبها إميل شاهين، لكنّها توسّلت إليه أن يتركه، فتركه.

«أنت إميل»؟ سأل المحقّق.

«نعم، نعم، إميل شاهين»، أجاب الشاب.

«هل عندك ما تضيفه»؟

«شيرين قالت كلّ شيء»، أجاب إميل.

قالت إنّه أمر إميل بأن يتلو صلاته الأخيرة قبل أن يقتله أمام عشيقته، «ساعتها صرت أترجّاه وأبكي، بسْ ضلّو متيّس، والبارودة مصوّبة على رأس الزلمة، فصرخت، ما بعرف منين إجتني القوّة، فزّ إميل على السيّارة وزمط والحمد لله، خطيبي هرب، وأنا وقعت بين إيدين هالنّصّاب».

«شو جوابك يا دانيال»؟ سأل المحقّق.

شعر يالو بالتأتأة والعجز عن الكلام. عادت البحصة إلى فمه، أمّه كانت تضع له بحصة صغيرة تحت لسانه من أجل أن يحكي دون أن يتأتئ. ثمّ نسي التأتأة حين رأى الدم، هكذا كان سيكتب لو استطاع النظر إلى حياته في مرآة الأيّام، لكنّه يقف

هنا، يشعر ببحصة أمّه تحت لسانه، ولا يجد كلمات يقولها.
«لماذا لم يبلّغ خطيبك فوراً عن الحادثة»؟ كان سيقول.
«لماذا كان أشيب وفي الخمسين، وصار اليوم شابّاً»؟ كان سيقول.
«لماذا تركك وهرب»؟ كان سيقول.
لكنّه لم يقل. والمحقّق لم يلحّ عليه من أجل أن يجاوب. اعتبر صمته جواباً واعترافاً.
«هيدا يلّي اغتصبك، وبعدو لاحقك، وعم يبتزّك، وياخد منّك مصاري؟» سأل المحقّق.
أحنَتْ شيرين رأسها بالموافقة.
نظر إميل إلى ساعته وسأل المحقّق إذا كانا يستطيعان المغادرة الآن.
«طبعاً طبعاً»، قال المحقّق، ورافقهما إلى باب المخفر.

أمّا في مطعم «البير»، فلا.
صفعها فخرست. ثمّ حين طلب رزّاً بحليب ابتسمت. فقال لها إنّه يحبّها.
«أنا مخطوبة يا يالو»، قالت.
«أنا بحبّك»، قال.
«دخيلك»، قالت.
جاء النادل بفاتورة الحساب، فصرفه يالو وطلب كأس عرق من جديد. شرب شقّة من كأس العرق، نظر في عينيّ الفتاة، قبل أن يغمض عينيه طويلاً.
«دخيلك ما تنام»، قالت.
«اسكتي»، جاوبها، «اتركيني عم بحكي مع الله».
وبدأت الفتاة تحكي، ويالو يستمع إليها بعينيه المغمضتين.
«أنا بحترم مشاعرك، بس متل منّك شايف، أنا مخطوبة وما بقدر»، قالت.
«هيدا الخرا يلّلي تركك بالحرش وهرب»؟ سأل.
«لا، لا، هيدا تركته، خطيبي واحد تاني».
وروت الفتاة، واستمع يالو.
«متل الأفلام المصريّة» قال، «كأنّي عم بحضر فيلم للأستاذ وحيد».
قالت إنّها سوف تستمع إلى الأغاني العربيّة من أجله، وقالت إنّها تقدّره، وقالت إنّها تعتذر، وقالت إنّه كان محقّاً في صفعها لأنّها أساءت إلى مشاعره عندما عرضت عليه المال.
«خلص هالحكي»، صرخ يالو.
وقف ومثّل مشهد فريد شوقي عندما صفع هند رستم في فيلم «فتاة النيل»، وكيف ركعت الممثّلة وقالت : «بحبّك يا وحش».
«هيك بدّي ياكي تكوني»، قال : «لازم تحبّي رجّال حقيقي، مش هالخراوات، واحد،

ختيار قد بيّك، والتاني بخاف من أمّو».

«معك حقّ»، قالت شيرين، «بس شو بقدر أعمل، بحبّو، كان طالب معي بالجامعة الأميركيّة ونمنا سوا، أنا كنت آخد حبوب منع الحمل، بسّ يومها نسيت، ما بعرف ليش، ولمّن خبّرتو إنّي حبلى ولازم نتزوّج، هرب، وقال إنّو بخاف من أمّو، وبعدين دبّرت حالي، عملت «ديبريسيون»، وأخذتني واحدة صاحبتي عند الدكتور سعيد يلّلي عملّلي «الكورتاج»، وحبّني، قال إنّو حبّني قد ما بكيت. وصلت لعندو على العيادة، وصرت أبكي، ما قدرت إحكي، قعدت على الكرسي، وحطّيت راسي بين إيديّ وصرت أشهق والدّموع تكرج من عيوني، والدكتور ما قال شي، تركني أبكي وقعد يتفرّج عليّي. هو بعدين قلّلي إنّو قعد يتفرّج، قلّلي إنّو انغرم فيّي من أجل الدموع، هيك قالها بالعربي الفصيح، قال من أجل الدموع وعبطني. بكيت ما بعرف قدّيش، بعدين قلّلي يلّله قومي، قومي على الغرفة الجوّانيّة. قمت على الغرفة التانية وسمعتو عم بقلّلي، اشلحي، شلحت التنّورة وبقيت واقفة. قلّلي لا، وأشّر بإيديه على كلّ شيء. وشلحت كلّ شيء، وصار يتطلّع بصدري، حسّيت مدري كيف، نظراتو كانت عم تنغرس بصدري كأنّها دبابيس، وسمعتو قال : حلو كتير. بس ما ردّيت، كنت عم برجف من الخوف، قلتلّلو برداتة يا حكيم، قلّلي تلقّحي، تلقّحت على تخت غريب، نصف تخت، نمت على ضهري وتدندلو إجريّي لتحت، قرّبت الممرضة منّي ومعها إبرة، وهو صار يتطلّع تحت، وعيونو مدري كيف كانوا، خفت يكون في مشكلة، حاولت إحكي، بس لساني صار تقيل بتمّي، متل شي قطعة كاتشوك، وبعدين ما بتذكّر. لا، قبل ما غيب عن الوعي، قلتلّلو برداتة، الله يخلّيك عطيني غطاء، كنت خايفة ومستحيّية، وعيونو كانوا كأنّن شايفين أشيا، وبعدين لمّن فتّحت عيوني، كان كلّ شيء خلص. سمعت الممرّضة عم تقول الحمد لله على السلامة، البسي وفوتي عند الحكيم».

روت شيرين، انطلق لسانها دفعة واحدة، كانت تروي وتبكي وتتمخّط، ويالو يعطيها أوراق الكلينكس ويشتعل، كلّ شيء فيه اشتعل. نصف السّرير أشعله، وإشارة الطبيب بيديه لها بأن تخلع ثيابها أشعله، ومشهد الممرّضة وهي تشكّها إبرة البنج أشعله.

قالت إنّها خلعت كلّ ثيابها، ورسمت ما يشبه الدّوائر حول نهديها الصّغيرين، فشمّ رائحة النهدين، وشمّ العريّ، لكنّه كان كالمشلول. هي تحكي وهو يستمع ويشعر بعينيه ثقيلتين كأنّهما في النّوم. روت عن النزيف الذي أصابها بعد الإجهاض بيومين وكيف أخذها الدكتور سعيد الحلبي إلى عيادته الخاصّة، حيث أقامت ثلاثة أيّام حتى شفيت، وكيف أنّها أحبّته في اليوم الثالث.

«تركتو ينام معي من دون ما أشعر برغبة حقيقيّة. لا، ما نام معي مزبوط». قالت إنّه في اليوم الثالث، والساعة تشير إلى السّادسة مساءً، وهي وحيدة في الغرفة،

تغالب النعاس، وتشعر بالشّوق إلى إشعال سيجارة، رأته قادماً. كان غبش المساء يلوّن كلّ شيء بالرّماديّ الذي ينوص فيه الضّوء، حين دخل الغرفة برأسه الذي يلتمع بالشيب، جلس إلى جانبها على السّرير، وقال، «خلص، الحمد لله على سلامتك، هلّق صار فيكي تروحي على البيت». أزاحت الغطاء عنها من أجل أن تنهض، فأمسك بيدها.

«لمّن مسك إيدي حسّيت إنّي بحبّو».

قالت إنّها أحبّته من يده. كانت أصابعه الطويلة مثل أصابع عازف البيانو مشبوكة بأصابعها، حين شعرت بالحبّ.

«وضع يده اليمنى على يدي، وترك يده الثانية تتغلغل في شعره الأبيض، فأحببته». قالت إنّها أحبّته، وتمنّت أن يضمّها إلى صدره.

«قلتلّلو ما بدّي روح، تعوّدت عليك يا دكتور».

قالت شيرين عن المساء، كان الليل يزحف فوقهما، وأنّها لا تعرف ماذا جرى بعد ذلك.

«وما بعرف شو صار، ما بتذكّر. بتعرف أنا ما بتذكّر هالأشيا، مش بسّ مع الدكتور سعيد، مع الكلّ يعني، معك ما بتذكّر، ومع إميل ما بتذكّر. مبلى، بتذكّر الغرفة والدكتور حدّي، وإنّي نمت معو، بسّ ما بتذكّر التفاصيل، وما بعرف شو صار، ليش قولك بصير معي هيك»؟

«شو بعرّفني»، قال يالو.

«غريب، والله ما بتذكّر شي»، قالت.

«يعني هلّق ما بتتذكّري كيف نمتي معي؟» سأل يالو.

...

«ما بتتذكّري كيف تاني مرّة، صرت تقولي إنّك عم تشمّي ريحة الصنوبر كأنّو الصنوبر دخل على الغرفة».

«أنا قلت هيك»؟!

«طبعاً».

«مش معقول».

«أنت تحكي عن ريحة الصنوبر، وأنا حسّ إنّو سلسلة ظهري عم تتفكّك».

«أنا ما قلت شي»، قالت شيرين، «مش ممكن، أنا معك كنت رح موت من الخوف، بعدين الله يخلّيك خلّينا ننسى».

لماذا نسيت كلّ شيء؟

نسيت كيف أخبرته في مطعم «البير» عن الدكتور سعيد، وعن خطيبها الجديد – القديم إميل. جلست كالغريبة، وخرج من عينيها الصغيرتين شيء يشبه وحشيّة الشّباب في ذلك اليوم الذي قرّر يالو أن ينساه، ونسيه. حين أخذوا الرّجال الثلاثة إلى

المقبرة، وصلبوهم على الأرض تحت شجر السرو في مقبرة مار متر. صلبوهم قبل أن يطلقوا عليهم النّار، ثمّ صاروا يشتمون ويبصقون، والرّعب يسكن في عيونهم. يالو تقيّأ يومها ثمّ بكى، ثمّ ذهب إلى البيت، ثمّ... لا، لا يريد أن يتذكّر الآن، فأغمض عينيه.

قالت إنّها قبّلت الطبيب، رفعت عنقها قليلاً من أجل أن تلتقي شفتاها بشفتيه، وأنّها أحبّته.

«تركته ينام معي من دون رغبة، بسّ هو ما نام...» قالت.

قال لها الطبيب إنّ الممارسة الجنسيّة الكاملة، حرام الآن.

«ونام مع صدري»، قالت وهي تبكي وتتمخّط.

«كيف يعني»؟ سأل يالو بصوت متهدّج.

«يعني هيك»، قالت، ورسمت بإصبعها خطّاً بين نهديها.

«وأنا ما حسّيت شي، مبلى، حسيت بالحرارة».

قالت إنّها أقامت مع الطبيب علاقة طويلة، وأنّه كان غريب الأطوار، وأنّه كان ينام معها «دايماً هيك».

«كيف يعني هيك»؟ سأل يالو.

«يعني هون»، ورسمت خطّاً وهميّاً بين نهديها.

«كلّ الوقت هيك»؟!

«تقريباً»، قالت، «قال إنّو بحبّ بزازي».

«ما تقولي هالكلمة»، قال يالو. «مش حلو النسوان تقول كلمات هيك».

«طيّب شو بدّك ياني قول، عم قول الحقيقة».

«قولي سهرو».

«شو يعني سهرو»، قالت.

«نسيتي! أنا علّمتك هالكلمة لمّن كنتِ عندي بالبيت».

«قلتلّك إنّي ما بتذكّر شي».

«وقتها اسألتيني شو يعني وشرحت لك».

«طيّب، اشرح لي هلّق».

«هلّق لا»، قال يالو، «بسّ ما تستعملي هيديك الكلمة».

قالت إنّ الطبيب لم ينم معها ولا مرّة. كان يكتفي بالغزل وبهيدول. «كان يقلّلي إنّو بخاف ينام معي مزبوط لأنّا بالعيادة، قلتلّلو طيّب منروح عالأوتيل، قال، كلّ النّاس بتعرفو وهو رجّال متزوّج، وصرنا نقضيها بين العيادة والسيّارة، وهونيك ببلوّنة وقت يلّلي اغتصبتني...».

«أنا اغتصبتك؟ شو هالحكي!».

«يعني وقت يلّلي أخدتني لعندك ونمت معي، وقتها كنّا بالسيّارة، قلّلي وطّي

راسك».

«يمكن شافني».

«لا، ما شافك، كان بدّو ياني...».

«بدّو ياكي شو»؟

«بدّو ياني وطّي راسي، وساعتها شرّفت حضرتك، ومتنا رعبة، وما بعرف كيف علّيت راسي، وكيف هو ضبضب حالو».

«أنا أهبل»، صرخ يالو، «أهبل وحمار».

«وطّي صوتك»، قالت شيرين، «أرجوك، المطعم مليان ناس، عمول معروف ما تعلّلي صوتك».

فقال يالو بصوت منخفض إنّه أهبل وحمار.

أين رائحة البخّور؟

لماذا لم يشمّ يالو رائحة البخّور، حين رآها جالسة في غرفة التحقيق؟

في مطعم «البير»، شمّ الرّائحة، كان بخّورها أقوى من العرق والعصافير المقليّة وكلّ شيء. أمّا هنا، في غرفة التحقيق البيضاء، فلم يشمّ شيئاً. بلى كان في أنفه ما يشبه رائحة الكاوتشوك. وعندما سيجبره المحقق على كتابة قصّة حياته، فإنّه سوف يكتب عن رائحة الحبس، سوف يقول إنّ رائحة السّجن تشبه الكاوتشوك المبلّل بالماء. رائحة نفط ومازوت ومطّاط يشتعل بالدخان.

عندما رآها أمام المحقق، سقط على الكرسيّ، وأغمض عينيه بحثاً عن رائحة البخّور. رأى إميل الجالس إلى جانبها، ورأى فخذيها الرفيعين العاريين بالتنّورة القصيرة، ورأى استدارة النهدين الصغيرين، وانتظر البخّور. لكنّ البخور لم يطلع، بل ازدادت الرّائحة قوّة، وأصبحت أشبه برائحة مطّاط محروق مغطّى بالماء، وشمس تخترق كل شيء وتجعل الرؤية مستحيلة.

وشيرين قالت.

قالت ومدّت يدها وأمسكت يد يالو، في المطعم، قبل أن تسحب يدها من يده وتقول «دخيلك».

«دخيلك خلّيني فلّ. أنا ما بدّي منّك شي، بعتذر، سامحني، وخلّيني فلّ».

«لوين بدّك تروحي»؟ سأل يالو.

«بدّي روح على بيتي وحياتي»، أجابت.

«فلّي، ليش أنا رابطك؟»

«نعم رابطني، دخيلك فكني وخلّليني روح، أنا ممنونتك على كلّ شي، بس لازم تفهم إنّو خلص، كلّ شي خلص».

شعر يالو برغبة في صفعها من جديد، لكنّه لم يفعل. الصّفعة كانت منطقيّة عندما فتحت جزدانها وأخرجت منه كمشة من الدولارات ودفعتها إلى يالو، تاركة جزدانها مفتوحاً على الطاولة، وطلبت منه أن يحلّ عنها.

«خود كلّ شي»، قالت، «وإذا بدك أكتر أنا مستعدّة إدفع، بس حلّ عنّي».

ساعتها، وقف يالو وصفعها، سمع أصوات أقدام تقترب، فخمّن أنّ عمّال المطعم سيأتون، وضع يده في جيبه متحسّساً السكّين، واستعدّ للمعركة. لكن صوت الأقدام تدحرج بعيداً وغاب. جلس في مكانه، وشرب كأسه كلّه دفعة واحدة، وخيّم الصّمت الذي لم يقطعه سوى سعال شيرين وبكائها.

أعطاها ورقة كلينكس، فأعادت المصاري إلى الجزدان، ثمّ أعطاها لقمة كبّة نيئة، فأكلتها، وعاد الكلام إلى الكلام.

روى لها عن الأفلام المصريّة التي يحبّها، لأنّ المدام جعلته يحبّها. كانت تطلب منه النّزول إلى بيروت مرّة في الأسبوع، من أجل أن يجلب لها الأفلام العربيّة من محلّ ڤيديو في حيّ «السوديكو». وكانت تقضي صباحاتها في التفرّج على هذه الأفلام. وكانت تدعوه في بعض الأحيان إلى مشاهدتها معه. أمّا الأفلام الأخرى، فلم يخبر شيرين عنها، عدا أنّه لم يكن يعلم من أين تجلبها المدام، لكنّها كانت لا تتفرّج عليها إلاّ في اللّيل. النّهار للأفلام العربية، والليل لتلك الأفلام التي كانت لا تشاهدها إلاّ مع قنّينة ويسكي «بلاك ليبل». ويالو لا يريد أن يتكلّم الآن عن تلك الأفلام، لأنّه منذ شيرين صار يرى الحياة بعينين جديدتين.

لماذا لم تصدقه شيرين؟

لماذا تصرّ على الاعتقاد بأنّه يبتزّها، وأنّ حبّه لها وأغنيات عبدالحليم حافظ لا معنى لها؟

في المطعم، حين روت عن علاقتها بإميل أحسّ بحاجة إلى صفعها من جديد. قالت إنّها صارت تعتقد أنّ الدكتور سعيد لا يحبّها.

«يعني كيف بدّي قللك، ما بعرف، بسّ حسّيت إنّو ما بحبّني مزبوط».

قالت إنّ علاقتها بالطبيب انقطعت بعد تلك اللّيلة الجحيمة. «متل كأنّو كلّ أبواب جهنّم انفتحت. رحت لعندو على العيادة متل العادة. يعني الساعة ستّة المساء، على أساس منقضي ساعة زمان قبل ما يرجع على بيتو، قعدنا نتحدّث، قرّب صوبي، مدّ إيدو حتّى يفكّ أزرار القميص، وسألني عن إميل. أنا وقتها كنت رجعت إضهر مع إميل، زهقت حياتي من عيشة السرّ والكذب والمواعيد الناقصة، وبعدين ما كان ينام معي إلاّ متل ما قلتلّك. رجعت لإميل وصرت إضهر معو، ما بخبّرك كيف صار لمّن قبلت إحكي معو، قال إنّو حاسس بعقدة ذنب، وإنّو وإنّ، وقال إنّو راح يجيب إمّو تخطبني. أنا ما خبّرت الدكتور سعيد عن إميل، مدري كيف عرف، مبلى خبّرتو إنّو إميل اتّصل، بس ما

خبّرتو إنّي رحت معو على السينما، وأنّا نمنا سوا».

«نمت معو»! سأل يالو.

«شوفَيها، ما هو رح يصير خطيبي».

«يعني كنت تنامي مع رجّالين بنفس الوقت»؟

لم تجاوب شَيرين، خفضت رأسها وسكتت.

«شو بك سكتت»؟

قالت إنّها لم تعَد تفهم عليه، أخذها واغتصبها وصار يلاحقها بالتلفونات، ويفرض عليها أن تلتقي به في المقاهي، وينتظرها أمام بيتها وأمام عملها، ويبتزّها، ويهدّدها، ويأتي الآن ليعطيها دروساً في الأخلاق لأنّها نامت مع رجلين.

«وأنت مع كم واحدة نمت من نسوان الحرش»؟

«لا، أنا مش هيك».

«إنت شو؟ إنت مين؟ واللّه ما بعرف شو اللّه علّقني فيك»؟

«وبعدين»؟ سأل يالو.

«بعدين شو؟» قالت شيرين.

«خبّرتيه عن إميل، وبعدين»؟

«آه، عم تسألني عن الحكيم».

قالت إنّها أصيبت بالدّهشة عندما رأت ماذا حلّ بالدكتور سعيد. عندما سألها عن إميل، قرّرت شيرين أنّ الوقت قد حان من أجل أن تخبره الحقيقة. وعندما سمع أنّها ذهبت معه، بعد أن حضرا فيلم «سكارفيس»، إلى المطعم الإيطالي حيث تعشّيا، ثمّ ذهبت إلى شقّته وقضت اللّيلة معه، لم يغضب ويطردها من العيادة مثلما توقّعت، بل صار يأكل أظافر أصابع يديه بنهم ودون توقّف، ثمّ اقترب منها، وأمسكها من صدرها.

«لا لا»، قلت له، «لا، ما بقى بدّي هيك».

«بعرف كيف بدّك»، أجابها، وبدأ يمزّق ثيابها، ثمّ قادها إلى الكنباية، خلعت كلّ ملابسها وساعدته على خلع ملابسه، وبدأ الجحيم.

قالت شيرين إنّها لا تعرف ماذا جرى، هل نام معها أم لم ينم. قالت إنّه كان منتصباً، وأنّها أمسكت به، وأنّه دخل، لكنّه، لا تدري، ربّما قذف بسرعة، لكن لم يكن هناك أثر، ربّما ارتخى فجأة فادّعى أنّه انتهى، وبدأ يحاول من جديد. كان حدّها كل الوقت، كأنّه ينام معها، لكنّه لم... ثمّ قال إنّه لا يستطيع، لأنّها خصته. «أنتِ امرأة تخصين الرجال».

نظرت شيرين إلى يالو وسألته «معقول هالحكي».

قال يالو إنّه لم يفهم بالضبط ماذا جرى.

«وأنا كمان ما فهمت»، قالت شيرين.

«اللّه لا يجرّبنا»، قال يالو ضاحكاً.
«يعني مزبوط أنا بخصي الرجال»؟ سألت شيرين.
«مع غيري ما بعرف، بس معي أنا مستعد برهنلك هلّق».
«ليك بشو بالك».
«بشو لازم يكون بالي»؟ قال يالو وهو يرتشف من كأس العرق.
قالت شيرين إنّه نهض، لبس ثيابه، وتركها وحدها في العيادة ومضى.
«لبست تيابي بسرعة بلا ما إتحمّم، خفت إنّو يكون قفل الباب، وزربني هونيك، لمّن فتحت الباب انفتح، حملت حالي ورجعت عالبيت وخلص».
«خلص»؟
«لا، بعدين صارت القصّة ببلّونة. ترجّاني وطلعت معو، وصار يلّلي صار وخلص».
«وإميل»؟ سأل يالو.
«لا، لا إميل ما عرف شي عن علاقتي بالدكتور سعيد، بعدين شو هالعلاقة يلّلي ما إلها طعمة».
قالت إنّها مع إميل، لا تشعر أيضاً بطعم الأشياء، لكنّها سوف تتزوّجه. تنام معه دون أن تشعر بالرّغبة، لكنّها تشعر نحوه بالحنان، وخصوصاً أنّه يحمل شعوره بالذنب نحوها على كتفيه، ويظلّ منحنياً. كأنّه خائف عليها.
قالت شيرين إنّها سوف تتزوّج إميل وتريد من يالو أن يفهم وضعها، ويتوقّف عن ملاحقتها بالتلفون، لأنّ موعد الخطبة صار قريباً.
«الخطبة؟ أيّ خطبة»؟
«خطبتي من إميل»، قالت شيرين «نحنا قرّرنا نخطب، اللّه يخلّيك خلص».

«هلّق ظهرت الحقيقة»، صرخ المحقّق.
لماذا قال المحقّق إنّ الحقيقة ظهرت، هل لأنّها جاءت مع إميل وكذبت، أهكذا تظهر الحقيقة؟
قال المحقّق إنّ الحقيقة ظهرت، «وما بقى ينفع الكذب».
«نعم يا سيّدي»، قال يالو، وأراد أن يعترف. أحنى رأسه وأغمض عينيه فشعر بالاعتراف، وسمع صوت جدّه الكوهنو، وهو يقول بصوته المبحوح الذي تبتلعه حنجرته: «اعترف». كان يالو يخاف حين يستمع إلى أمّه وهي تقول إنّ أباها ابتلع صوته، يخاف ويتوقّف عن بلع ريقه، كي لا يبتلع صوته ويصبح مثل جدّه.
«اعترف يا ولد»، يصرخ الكوهنو.
لا يرى يالو سوى لحية بيضاء، تنتشر حولها رائحة غريبة.
«هذه رائحة البخّور»، قالت الأمّ. «جدّك كوهنو يا ابني، بيعلك البخّور والمسك قبل

ما يُباشر الصلاة، وأنت كمان، بكرا بس تكبر إنشاللّه بتصير كوهنو متل جدّك».

«أنا بكره كلّ الكوهنوات»، قال دانيال.

لكنّ الجدّ، الخوري أفرام مثلما صار اسمه بعد أن دخل في سلك الكهنوت، نسي كلّ شيء. نسي اسمه الأوّل هابيل، واسمه الثاني الذي أطلقه عليه الملّلا الكرديّ، ونسي عمله كبلاّط في ورشات البناء التي كانت منتشرة في بيروت، ونسي أمّه التي ماتت في قرية بعيدة اسمها عين ورد، ونسي زوجته التي قتلها مرضها الطويل.

الكوهنو أفرام لا يذكر من أمّه سوى شعرها الأسود الطّويل. الذي تجمّدت فوقه بقع الدّم، وصارت مثل العيون المفتوحة. أفرام يمضغ صمغ شجر الصنوبر، ويعطّر لحيته بالبخّور، ويخاف من العيون المفتوحة.

«غمّض عيونك يا ولد واعترف».

«عيون هالصّبي بخوّفوني، ليش عيونو كبار هلقد ورموشو طوال، منين جايب هالعيون، نحن بالعيلة ما عنّا عيون كبار هيك».

لم يكن يالو يعرف كيف يجاوب على أسئلة جدّه الكوهنو، لكنّه كان يغمض عينيه ويعترف أنّه كذب أو سرق تفّاحة أو لم يدرس أو أيّ شيء يخطر في باله. حين يستمع الكوهنو إلى الاعترافات يتحوّل من كوهنو يتقبّل سرّ الاعتراف إلى جدّ، وبدل أن يعظ الفتى الذي يعترف أمامه مغمض العينين، منحني الرأس، يبدأ في ضربه بقضيب الخيزران.

«ما بدّي إعترف عندك يا جدّو».

«أنا مش جدّو، أنا الأبونا أفرام، إذا ما اعترفت ما فيك تتناول بكرا».

كان يجبره على الاعتراف، ثمّ يبدأ في ضربه، والفتى يخاف من هذا الصوت المتحشرج، الذي يمهّد لأنين قضيب الخيزران فوق قدميه العاريتين.

يالو لا يبكي، يبتلع ريقه، ويرتجف بالقهر أمام جدّه.

كان يسمّيه الجدّ الأسود، وكان ذلك الرّجل المربوع القامة، العسليّ العينين، الكبير الأنف، الذي تحتلّ لحيته البيضاء وجهه كلّه وتنحدر إلى صدره، هو ربّ هذه العائلة الصغيرة المؤلّفة من يالو وأمّه غابي، ولم يكن له أب. فالأب هاجر من زمان إلى السّويد وانقطعت أخباره، ولم يكن هناك أخ أو أخت.

«فقط نحن الثلاثة»، قال يالو للمحقق حين سُئل عن عائلته.

«نحن عائلة مؤلّفة من ثلاثة أشخاص فقط: إبو وبرو وروحو قديشو، وأنا هو البرو».

«شو هالحكي هيدا؟ شو أنا عم بمزح معك»؟ صرخ المحقّق.

«لا سيدنا، بس جدّي الأسود كان هيك يحكي، هو سرياني، بس أنا بعتقد إنّو كردي، ما بعرف شو هالخلطة العجيبة، هيك نحن، آب وابن وروح قدس، وأمّي هي الرّوح

القدس، هيك تعلّمت من أنا وصغير، بس جدّي بطّل يندهلي يا برّو، قال إنّي مش برّو صالح، البرّو هو المسيح، وأنا طالع مثل يوضاس، أزعر ومش نافع، منشان هيك صار يندهلي يالو، ولمّن يسمع أمّي عم بتقلّلي يا برّو يمنعها ويصرخ عليها».

لماذا لم يقل يالو هذه الأشياء للمحقّق؟

عندما سأله عن عائلته لم يعرف ماذا يجاوب. أغمض عينيه كأنّه لا يسمع.

«اعترف»، صرخ المحقّق.

قرّر يالو أن يعترف، جاءه الاعتراف فقال: «نعم، بس مش هيك صار».

«شو صار؟ هات لنشوف».

قال يالو إنّ شيرين لم تكن في السيّارة مع إميل بل مع رجل آخر.

«كذّاب، ليش ما قلت هالحكي، وقت يلّلي كان السيّد إميل قاعد هون».

وسقط الصّمت.

شعر يالو أنَّ الصّمت ينتشر في كلّ أنحائه، صمت شامل يبتلعه ويبتلع صوته وأذنيه. هكذا أحسَّ حين وصل إلى الڤيلّلا. قال له المحامي تعال، وجاء به من باريس إلى هناك. وهناك، في قرية بلّونة، سمع صوت الصّمت، وتآلف معه، وصار جزءاً منه. واكتشف أنّ اللّيل يملك جسداً، وأنَّ جسد اللّيل يسقط فوقه ويغطّيه.

ليل مثل معطف أسود، وصمت مثل الصّمت، ونجوم تنتشر فوقه كأنّها مفتوحة على الأبد، وأبد يأخذه إلى آخر الخوف.

قال المحامي ميشال سلّوم إنّه أتى به إلى هنا من أجل أن يحرس ڤيلّلا «غردينيا». قال إنّه جلب بندقيّة كلاشينكوف وصندوق ذخيرة، ودلّه على الكوخ في أسفل الڤيلّلا، حيث سيقيم.

«نعم، نعم»، قال يالو.

«انزل على بيتك، رتّب حالك وبعدين لحقني لفوق حتّى عرّفك على مرتي الستّ رندة، وعلى بنتي غادة».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«تحمّم، الميّ سخنة، غيّر تيابك اشتريتلك تياب جداد، وبعدين لحقني».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«وما بدّي زعرنة، فاهم، البارودة مش للاستعمال إلاّ إذا صار شي لا سمح اللّه، ما بدّي حدا يشوف البارودة، وما بدّي مرتي تعرف».

«نعم، نعم»، قال يالو.

«مرتي بتخاف من الكلاب، وإلاّ كنّا حطّينا كلب للحراسة، يعني حتّى يساعدك، بس هي بتخاف، منشان هيك ما فيك تتّكل على حدن، اتّكل على اللّه، وعلى حالك».

«نعم، نعم»، قال يالو.

نزل يالو إلى الكوخ في أسفل ڤيلّا الأستاذ ميشال سلّوم، وشعر أنّه يمتلك قصراً. كان البيت صغيراً وجميلاً، هكذا فكّر يالو حين وجد نفسه وحيداً في بيته الجديد. غرفة كبيرة مساحتها حوالي أربعين متراً مربّعاً، مستطيلة، حيطانها مطليّة باللّون الأبيض، أرضها مغطّاة بموكيت أخضر، على اليمين سرير خشبيّ عريض مغطّى بحرام صوفيّ أزرق اللّون، وعلى اليسار كنباية قديمة لونها زهر، وإلى جانبها طاولة خشبيّة وثلاث كراس من الخيزران، ومن السّقف تتدلّى لمبة كهربائيّة عارية، وإلى اليسار خزانة حديديّة فتحها يالو فرأى ثلاثة بنطلونات جديدة، ومجموعة من القمصان القديمة النظيفة والمكويّة، وكنزة صوفيّة زيتيّة، وإلى يسار الغرفة مطبخ يحتوي برّاداً صغيراً وبوتوغازاً له ثلاث عيون، وطاولة صغيرة، وخزانة بيضاء فيها صحون وطناجر، وإلى جانبه حمّام صغير، فيه مرحاض ودوش ومرآة نصفيّة، وعلبة بيضاء للأدوية عليها إشارة الصليب الأحمر، وسخّان ماء يعمل على الكهرباء. أشعل يالو السخّان وعاد إلى الغرفة وجلس على الكنباية مسترخياً، فرأى في زاوية السّقف اليمنى خيطان عنكبوت، وانتبه إلى أنّ الطّلاء قد تقشّر في أعلى الحائط إلى اليسار، لكنّه شعر بأنّه ملك. دخل إلى الحمّام وأخذ دوشاً بالماء الذي لم يكن قد سخن بشكل كاف، ثمّ لبس قميصاً أخضر وبنطلوناً رمادياً، واكتشف أنّ البنطلون قصير وأنّ البنطلونات الثلاثة المعلّقة في خزانته قصيرة قليلاً، فقرّر أن يلبس بنطلونه القديم من جديد، وأن يشتري في الغد بنطلوناً.

فكّر يالو أنّه سوف يعيش للمرّة الأولى في حياته في بيته هو، وفكّر أنّه يستطيع أن يجلب أمّه إلى هنا، ثمّ صرف النّظر عن الموضوع، فالستّ غبريال قالت إنّها ستعود إلى بيتها القديم، وأنّها تكره ضاحية عين الرمّانة التي اضطرّت إلى اللّجوء إليها، بعد هجرتها القسريّة من بيتها في حيّ السريان في المصيطبة، مع بداية الحرب.

قالت إنّ زبائنها ينتظرون عودتها إلى الحيّ، وأنّها سوف ترجع إلى مهنتها الأصليّة لأنّها أفضل خيّاطة في بيروت.

قالت إنّها لم تعد تطيق هذه الحياة، وأنّها اشتاقت إلى جيرانها القدماء، وأنّ الحرب الأهليّة انتهت أو يجب أن تنتهي.

قالت إنَّ والدها مات هنا كالغرباء، الأبونا أفرام مات وحيداً وهي لا تريد أن تموت هنا، تريد أن تموت في بيتها.

قالت وقالت، كانت تقف طويلاً أمام المرآة وتحكي. وصار يالو يخاف من أمّه. صارت المرأة تثير الرّعب في قلبه، فقرّر أن يمضي. غادر البيت منذ عامين ولم يعد إليه. أخذته الأيّام إلى حيث أخذته، وهناك في نفق محطّة المترو في باريس، عثر عليه المحامي ميشال سلّوم، وأعاده إلى لبنان.

يالو لم يزر أمّه منذ عودته إلى لبنان، ولن يستطيع تبرير هذا الأمر للمحقّق، إذ لا

يوجد أيّ مبرّر مقنع يمنع الإنسان من زيارة أمّه.

«أنا شفت أمّك»، قال المحقّق، «قالت إنّها ما بتعرف عنّك شي، رحت لعندها على بيتها بعين الرمّانة وسألتها عنّك».

«بعدها بعين الرمّانة»؟ سأل يالو.

«ليش ما بتعرف وين أمّك ساكنة»؟

«مبلى مبلى، بس كنت مفتكر أنّها رجعت على المصيطبة».

«يعني ما زرتها من وقت ما رجعت من فرنسا»؟

«لا».

«ليش»؟

«ما بعرف، ما كان بدّي، ما كان في سبب».

«ليش عملت هيك»؟

«شو عملت»؟

«أنت بتعرف».

كان أبونا أفرام يبتلع الأحرف عندما يقول «أنت بتعرف». والمحقّق أيضاً ابتلع الأحرف، كأنّه غصّ بالكلمات، شرب رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه، وسأله لماذا لم يزر أمّه.

ويالو يعرف أنّ أمّه، رغم كلّ شيء، لم تكن مشكلة، لم يزرها لأنّه لا يعرف، أو لأنّه كان متأكّداً من أنّها عادت إلى بيتهم القديم، وهو لا يحبّ البيت القديم، حيث لن يجد أمامه سوى صورة الجدّ الأسود، معلّقة على الحائط.

لكن يالو لم يعترف مرّة لجدّه عن خطاياه الحقيقيّة، فيالو كان مقتنعاً أنّه لا وجود سوى لخطيئة واحدة، وأنّه كان يرتكبها مرغماً ودون أن يقرّر، إذ يجد نفسه وحده مع الخطيئة، يدخل إلى الحمّام، ويمسك بالخطيئة ويرى النجوم.

قال لشيرين إنّه يحبّها لأنّه رأى النجوم. هذا الشعور بالنجوم التي تتفتّح مثل العيون في جسد اللّيل، لم يشعر به من جديد إلاّ مع شيرين، هناك في بيته الصغير في أسفل القيلّلا، أمّا مع الأخريات، نساء الحرج أو المدام أو بنات الحرب، فلا.

«أحبّك من أجل النجوم»، قال لها في المطعم، لكنّها لم تفهم شيئاً. قالت إنّها مستعدّة أن تعطيه كلّ المال الذي يريده دفعة واحدة، ولكن شرط أن يحلّ عنها، وتنتهي الحكاية وترتاح.

قالت وهي تبكي إنّها ترجوه، وأنّها صارت تخاف منه، وأنّها لا تحبّه بل تحبّ رجلاً آخر سوف تتزوّجه، فصفعها. حدّثها عن النجوم ففهمت أنّه يريد مالاً.

وقبل أن يغادرا المطعم، نظر إلى الفاتورة الموضوعة أمامه على الطاولة، وأراد أن

يدفع لكنّها سبقته ودفعت.

«أنا عازمتك»، قالت.

«ما بيصير هيك، كلّ مرّة أنت بتدفعي».

«معليش خلّيني هالمرّة كمان». قالت.

دفعت ومضت دون أن توصله إلى ساحة ساسين حيث ركن سيّارته. ركبت سيّارتها ولم تفتح له الباب، أدارت المحرّك ومضت، وبقي يالو واقفاً وحده على رصيف الشّارع الضيّق. قالت إنها مستعجلة، ويجب أن تعود إلى عملها. لكن هذه وقاحة، هكذا سيقول لها على التلفون في اليوم التالي، وسيسمع بدل جوابها صوت إقفال الخطّ في وجهه. سوف يعيد الاتّصال عشرات المرّات، ولن يسمع شيئاً. كان يالو متأكّداً من أنّها كانت تقفل الخطّ عندما تسمع صوته على السمّاعة يقول آلو. فصار يطلب الرّقم، وعندما ترفع السمّاعة يصمت ويُحاول أن يقطع تنفّسه. لكنّها لم تكن تقول حتّى كلمة آلو. كانت تترك الصّمت معلّقاً على سمّاعة الهاتف، ثمّ تقفل الخطّ. قضى يالو ثلاثة أيّام في لعبة التلفون الصّامت، ثمّ انفتح الصّوت من جديد، وعادت شيرين إلى التحدّث معه، والقبول بمواعيده، رغم أنّها كانت تحاول دائماً اختلاق الأعذار.

لماذا قالت إنّه جاء ليلة عيد ميلادها وزرع الرّعب في قلبها؟

يالو لم يفعل شيئاً، سوف يقول إنّه لم يفعل شيئاً، وقف تحت عمود الكهرباء بمعطفه الطويل، ولم يتحرّك من مكانه، ورأته. لم يكن ممكناً أن لا تراه، لأنّه أضاء عينيه وسلّطهما على نافذة غرفة نومها.

يستطيع يالو أن يقسم أنّه لم يفعل شيئاً سوى تسليط بؤبؤيه الأسودين الكبيرين على زجاج نافذة غرفتها. وقف جامداً ساعات طويلة دون حراك، ثمّ فتحت شيرين النافذة، وخرج البخار. لا يدري يالو ماذا كانوا يفعلون هناك في الدّاخل، لكنّه رأى دخاناً أبيض يخرج من النافذة، ويتحوّل غيمة، ورأى شيرين، كان رأسها يتدوّر داخل هالة من البخار الأبيض الذي يخرج من النافذة.

«مزبوط يا كلب، مزبوط وقفت تحت شبّاكها ليلة عيد ميلادها»؟ صرخ المحقّق.

لماذا قالت إنّه كان يحمل بطّاريتين ويقف تحت المصباح الكهربائيّ، مرسلاً ضوء بطّاريتيه إلى نافذة غرفة النوم؟

لماذا كذبت وقالت إنّه كان يحمل بندقيّة كلاشينكوف؟ وأنّه انقضّ على نافذتها كما فعل في تلك اللّيلة في حرج بلّونة، حين هجم عليها وعلى خطيبها بالمعطف الأسود الطويل، وجزمته التي تخشخش فوق التراب والحصى، وقبّعته الصوفيّة البيضاء التي تحجب ملامح وجهه، وضوء بطّاريّته الذي يعمي العيون؟

لماذا قالت للمحقّق إنّه وقف تحت نافذتها حاملاً بندقيّة وبطاريّتين؟

البندقية مستحيل، من يجرؤ على حمل بندقيّة في الشّارع وفي بيروت، وبعد أن

انتهت الحرب، أمّا البطّاريّة فيالو لم يحمل في حياته سوى بطّاريّة واحدة، وكانت أفضل بطّاريّة في العالم، أعطته إيّاها المدام حين انقطعت الكهرباء. بطّاريّة رفيعة سوداء، ترسل ضوءاً ثاقباً كخيط يضرب كأنّه صاعقة. تلك اللّيلة لم يستخدم يالو بطّاريّته، ولم يقف تحت نافذتها مهدّداً، ولم يقرع زجاج النافذة ببوز البندقيّة.

صحيح أنّه ذهب ووقف، وكانت بطّاريّته نائمة في كعب جيب معطفه إلى جانب السكّين الذي لا يُفارقه. لكنّه لم يحمل بندقيّته.

كان يقف، وعيناه تشتعلان حبّاً.

«إنّه الحبّ يا سيدنا»، أراد يالو أن يقول للمحقّق.

«الحبّ بذلّ يا سيدنا»، أراد أن يقول.

«الحبّ مثل الصليب يا سيدنا»، أراد يالو.

لكنّ يالو لم يعرف كيف يقول هذه الأشياء أمام المحقّق. لأنّه حين يقول يسمع صوت أمّه غابريال أو غابي في حنجزته. كانت تقف أمام المرآة وتقول إنّ وجهها لم يعد يشبه وجهها. تبكي، ثمّ تفتح حنفيّة الماء وتغسل وجهها ودموعها. تقف ساعات أمام المرآة، وتقول إنّها تغسل العمر على وجهها.

«الماء وحده يغسل العمر يا ابني».

يتركها ويمضي، ويبقى وجهها المغسول بماء العمر مرتسماً في عينيه وصوتها يُلاحقه ببحّته الخفيفة ولثغة جميع الأحرف التي تجعلها تقول كلمات تشبه الكلمات.

«كيف بتفهم على حكي أمّك»؟ سأله صديقه طوني الذي سوف يأخذه إلى باريس.

«كلّ النّاس بيفهموا عليها»، أجاب يالو، «الناس بتفهم الحكي من تعابير الوجه، مش من الكلمات».

لم يكن يالو يتفلسف حين قال لطوني عن تعابير الوجه، فهو لم يكن يعرف سوى بضع كلمات سريانيّة، لكنّه كان يفهم كلّ شيء من حركة عيني جدّه المليئتين بالدموع، ويجاوب بالعربيّة، ولا يقول سوى كلمة «لُوْ».

أراد أن يقول للمحقّق حلّ عنّي، لُوْ مش هيك، لكن شيرين أوجعته. لماذا قالت شيرين هذه الأشياء؟ لماذا نظرت إليه كأنّها تحقد عليه؟

عندما دخل يالو إلى غرفة التحقيق، رفعت شيرين إصبعها وقالت: هيدا هو.

في تلك اللّحظة نظر يالو فرأى فخذيها العاريين، ورأى الرّجل جالساً إلى جانبها، فسقط على الكرسيّ الموضوع في وسط الغرفة كي يجلس عليه المتّهم، ويكون محطّ أنظار الجميع، وتحت مراقبة المحقّق الصارمة.

سقط تحت العيون وأغمض عينيه، لم يسمع شيئاً ممّا قالته شيرين. قالت كلّ شيء للمحقّق قبل أن يجلبوا يالو إلى الغرفة، وحين أتى لم تقل سوى أشياء قليلة. جلست صامتة خلف بياض فخذيها الرفيعين اللّذين كشفت عنهما تنّورة قصيرة حمراء.

اختبأت خلف البياض مثلما اختفت خلف الغيمة البيضاء التي خرجت من نافذتها هناك.

«ذهبت ووقفت تحت النافذة من أجل أن أقول لها إنّني أحبّها»، قال يالو.

«كان بدّي أعملّها مفاجأة بعيد ميلادها، رحت الساعة عشرة باللّيل، ووقفت تحت الشبّاك، وضلّيتني واقف للصبح، قلت هيك لمّن بتوعى عبكرة، وبتشوفني جامد مثل عمود الكهربا بتحسّ بالمفاجأة، وبتفهم قدّيش بحبّها».

لكن يالو لم يقل، صدمته كلمات المحقّق، وكأنّها لسعات سوط ينهال على وجهه.

قال المحقّق إنّ يالو حمل بطّاريتين وبندقيّة كلاشينكوف ووقف تحت نافذة شيرين، وصار يضرب الضوء من بطّاريّتيه على النافذة، ثمّ حين فتحت النافذة رأته كيف رفع بندقيّته وصوّبها نحوها. وعندما صرخت هرب يالو.

لم يقل المحقّق كلمة «هرب»، بل قال جملة كاملة: «وعندما صرختْ أطلق ساقيه للرّيح».

«شو يعني أطلق ساقيه للرّيح»؟ سأل يالو.

«يعني هربت يا جبان»، أجاب المحقّق.

تخيّل يالو نفسه يتسلّق الرّيح ويهرب، فابتسم.

«ليش عم تبتسم»؟

«ماشي ماشي»، جاوب يالو، ورأى نفسه يتسلّق الرّيح ورأى الكلمات. هكذا الكلمات يسمعها فيراها. تتجسّد الكلمات أمامه في أشياء ماديّة حقيقيّة، ويشعر أنّه يصطدم بها بدل أن يسمعها أو يقرأها. كان يخاف من جدّه الأسود، لأنّه يخاف من كلماته. يسمع عبارة «تعا يا برّو»، فيشعر أنّ هناك مقصّاً معلّقاً فوق رأسه، يغطي شعره بيديه ويقترب من الجدّ، فيما المقصّ يتمايل كأنّه سوف ينقضّ على شعر رأسه. وحين تقول له أمّه اذهب إلى المدرسة، لم يكن يرى مدرسة أمامه، بل فتيات عاريات يتراكضن خلف الرّاهبات، ويشعر باللّعاب يصعد من فكّه الأسفل إلى شفتيه. وعندما يطلب منه جدّه أن يقلي بيضاً، كان يرى ساحة مليئة بالكلاب الشاردة. هكذا عاش طوال حياته، يسمع كلمة فيرى شيئاً، لكن هذا لا يعني أنّه لم يكن يفهم ما يقال. كان يذهب إلى المدرسة، ويعرف أنّ «البرّو» يعني الابن، وأنّ طلبات جدّه يجب أن تُنفّذ، لأنّ طلبات الكوهنو لا تُرفض.

ذهب الكوهنو إلى موته بطريقة غريبة. في البداية توقّف عن أكل اللّحم نهائياً، وصار لا يأكل سوى البيض والحليب والخضار، ثمّ توقّف عن البيض وغرق في الفاكهة والخضار، قبل أن يصاب بمرض التيه.

غابي قالت إنّ والدها صار تائهاً، ويالو صدّق أمّه، وصار يرى الجدّ الأسود داخل متاهة متقاطعة الخطوط. لم يعد الرّجل يعرف كيف يخرج من غرفة النّوم أو من

الحمّام، يدخل مكاناً فيعلق في داخله ولا يخرج إلاّ إذا أتى البرّو وأخرجه منه. وفي النهاية صار على البرّو أن يبحث عن جدّه كلّ ليلة في طرقات المدينة، كي يعيده إلى البيت.

عندما قال المحقّق عبارة : «أطلق ساقيه للرّيح» رأى يالو نفسه يتسلّق الهواء راكضاً، وشعر أنّ كمّيّ معطفه صارا أشبه بجناحي عصفور، وأنّه حين وقف هناك تحت النافذة لم يكن يشبه نفسه، بل صار صقراً له منقار طويل. رفع يالو يديه إلى الأعلى كأنّه سيطير، عندما سمع صوت المحقّق يصرخ به.

«نزّل إيديك يا كلب واعترف، كنت حامل رشّاش ولاّ لا».

«لا»، قال يالو.

«والبطّاريتين»؟ سأل المحقّق.

«لا»، قال يالو.

«ليش وقفت تحت الشبّاك وصرت تضرب ضوّ البطّاريتين على بيت الآنسة شيرين رعد؟ صحيح كان بدّك تخطفها؟ وصحيح كان بدّك مصاري؟ وصحيح أنّك قلتللها إنّو بدّك تتزوّجها وتاخدها على مصر؟ وليش كنت عم تخوّفها كلّ الوقت»؟

لماذا كذبت وقالت إنّه أجبرها على أن تشتري له بطاقة طائرة إلى مصر؟

هي اشترت البطاقة وقدّمتها له مع ألف جنيه مصري، قالت إنّ هذه هديّة، وأنّها تعتقد أنّه في حاجة إلى شمّ الهواء، وأنّها لا تستطيع ترك عملها من أجل أن تسافر معه. يومها لم يرد اسم خطيبها إميل على لسانها، ويومها أيضاً اقتنع يالو أنّها بدأت تحبّه، ولم يخطر في باله أنّه عندما أخذ البطاقة والمصاري سقط في الفخّ، وأنّه صار عاجزاً عن رؤية الأمور على حقيقتها. قال لها أن تأتي معه إلى مصر، قال لها إنّه سيأخذها إلى الأقصر حيث سترى الله، لكنّها قالت إنّها لا تستطيع. أخذ البطاقة ووضعها في الجارور، وهي لا تزال هناك، والألف جنيه التي قرّر أن يخبّئها على أمل أن توافق شيرين وتأتي معه إلى مصر، اضطر بعد ذلك إلى تحويلها عملة لبنانيّة وصرفها، لكنّه قبل الهديّة، قبلها كهدية وكعربون حبّ، وليس من أجل المصاري. على كلٍّ، فهو متأكد مَن أنّه لم يأخَذ مالاً منها، المحقّق قال على لسان شيرين، إنّه كان يبتزّها من أجل المال.

لماذا صرخ به المحقّق : «شو هو الصحيح»؟

هل كان يجب أن يجاوب بأنّ الصحيح هو الحبّ. ولكن كيف يقنع المحقّق بالحبّ.

«الحبّ ذلّ يا سيدنا»، قال يالو.

«أنا كنت حبّها وبعدني بحبّها»، لا هلّق بعد يلّلي صار ما بعرف، بسّ القصّة أنّي حبّيتها وكنت مستعدّ أعمل شو ما بدها».

«والمصاري»؟ صرخ المحقّق.

«المصاري يا سيدنا، ما كان في مصاري، المصاري ما إلها معنى».
«منشان هيك كنت تخوّفها وتجبرها تدفع يا كذّاب».
«والله أنا مش كذّاب بس ما بعرف».

كيف يُقنع يالو المحقّق بالحبّ، والمحقّق يحمل بين يديه رزمة أوراق سميكة، ويقول إنّ فيها كلّ المعلومات عن دانيال وعن جميع أفراد العصابة، وعن جميع الناس. هنا فهم يالو أن المقصود بكل الناس هو المدام رندة وزوجها المحامي ميشال سلوم، فقرر أن يرفض الإجابة عن جميع الأسئلة التي تتعلق بهذا الموضوع. ماذا يقول عن زوجة المحامي الذي أنقذه من الجوع والتشرد في باريس وأعاده إلى وطنه؟ لا، لن يقول شيئاً. صحيح أنّه نذل، مثلما قالت له المدام رندة عندما اكتشفت غزواته الليليّة في حرج العشّاق، لكنّ النذالة لن تصل به إلى حدّ الاعتراف عن علاقته بمدام رندة، وتشويه سمعة الرّجل الطيّب الذي أنقذه. حتّى ولو اعترف، فلن يصدّقه المحقق، حتّى الزوج لن يصدّق. لكن من المؤكّد أنّ المدام لن تستطيع أن تقول إنّه اغتصبها. شيرين تستطيع، إذا شاءت، التحدّث عن الاغتصاب، لأنّ وضعها مختلف، أمّا المدام فلا. جاءت شيرين إلى غرفة التحقيق، وجلست إلى جانب خطيبها، وقالت إنّه اغتصبها في الحرج.

لماذا قالت في الحرج، ولم تقل في الكوخ أو في البيت؟

الحرج أفضل للاغتصاب فكّر يالو، هناك يكون الاغتصاب الحقيقيّ. ماذا تعرف هذه الفتاة المسكينة عن الاغتصاب. أمّا تلك المرأة، «يا عيني على النسوان»، تلك كانت امرأة. امرأة في الأربعين، وكان طعمها مثل الكرز. جلس صاحبها على الأرض، ووضع رأسه بين يديه حين أخذها يالو إلى خلف شجرة البلّوط الضخمة. تصيّدها بالصدفة، كان مقتنعاً في تلك الليلة الصيفيّة، حيث كانت الطريق تعجّ بسيّارات الهاربين من حرّ بيروت إلى الجبل، بأنّه لن يعثر على شيء. لبس معطفه الأسود الطويل، وقطع الطريق الذي يفصل «ڤيللا غاردينيا» عن الحرج، وجلس في عتمة الصنوبر، وانتظر من دون انتظار. أغفى قليلاً، أو هكذا يبدو، لأنّه لم يرَ السيّارة آتية إلى المصيدة. استفاق على صوت توقّف عجلات السيّارة. فتح عينيه المثقلتين بالنعاس ورأى المرأة. تحسّس بطّاريته في جيب معطفه وهبّ واقفاً. لن يستطيع يالو أن يصف كيف نجح في الوقوف وضرب ضوء البطّارية على ضحيّته في اللحظة نفسها. ثمّ تسارعت الأحداث، اقترب من نافذة السيّارة وأشار ببندقيّته، فخرج الرّجل أوّلاً، ثمّ خرجت المرأة. أشار إلى المرأة فتبعته، وهناك تحت شجرة البلّوط أخذها، بينما كان صديقها يجلس على الأرض ورأسه بين يديه. لا يذكر يالو سوى طعم الكرز، فهو كان نصف نائم. وضع بندقيّته على الأرض واقترب من المرأة، ضمّها إليه، ثمّ وضع يديه تحت خصرها، فنزلت إلى الأرض، لم تخلع ثيابها ولم يخلع ثيابه، حتّى المعطف لم يخلعه،

رأى نفسه وقد دخل في الماء. لم يذق يالو في حياته شيئاً كهذا، كان ماء المرأة يتدفّق صافياً ويغمر كلّ شيء، وكانت ترتعد باللذّة. كلّ شيء كان يرتعش في رجل وامرأة التقّا داخل معطف أسود، ومارسا الحبّ إلى جانب بندقيّة نائمة وبطّارية مطفأة. وعندما انتهى يالو بعد أن اعتصرت روحه وامتلأ بنطلونه بالماء المؤنّث، حاول أن ينسحب فلم يستطع. كانت المرأة تقبض عليه بشدّة، وأحسّ بالألم، وبدأ الصراخ يتجمّع في حنجرته، وكان وكأنّه على وشك أن يبدأ من جديد، عندما رأى يديها تدفشان صدره، وتخرجانه منها. وقف، أغلق سحّاب بنطلونه، انحنى على بندقيّته وحملها، وعاد إلى بيته. لم ينتظر أن يغادرا، أحسّ بالحاجة إلى فنجان شاي ساخن فمضى. وحين التفت إلى حيث السيّارة، رأى المرأة تفتح الباب، بينما أدار الرّجل المحرّك دون أن يجرؤ على إشعال الضوء، وغادرا.

«لكنني... لكن ليس في الحرج»، قال يالو

«أنا ما اغتصبتها»، قال يالو.

ماذا قالت شيرين لخطيبها إميل؟

يجلس هنا في غرفة التحقيق إلى جانبها، ويهزّ رأسه كأنّه يعرف كلّ شيء، لكنّه لا يعرف شيئاً.

هل قالت له الحقيقة أم كذبت عليه؟

هل قالت إنّها ذهبت إلى بلّونة مع عشيقها الطبيب حيث كانا يمارسان الجنس في السيّارة؟ أم قالت إنّها ذهبت معه في مشوار بريء، حين انقضّ عليهما وحش يلبس معطفاً طويلاً أسود واغتصبها؟

لماذا قبل الخطيب أن يلعب هذا الدّور؟ هل يعتقد نفسه شهماً؟ لو كان شهماً لأنهى الموضوع بطريقة مختلفة، فكّر يالو. لماذا لم يتّصل به وينهيها معه رجلاً لرجل؟ كان في استطاعته دعوة يالو إلى المقهى، وهناك يحكي معه، ويقول إنّه يحبّها أيضاً، ويقترح أن يتنازل أحدهما للآخر كما يجدر بالرّجال النبلاء أن يفعلوا، ومثلما فعل الكوهنو أفرام بالخيّاط الياس الشامي، حين علم أن ابنته عادت إلى عشيقها القديم.

الكوهنو أفرام أخبر حفيده الحكاية، ويومها لم يفهم يالو شيئاً، لكنّه الأن فهم كلّ شيء.

يومها أنهى الجدّ الحكاية بشهامة، وأخبر القصّة لحفيده من أجل أن يعلّمه معنى الشهامة. «الحياة كلمة بتقولها وبتنحفر بالأرض»، قال الجدّ.

وحين عرفت غابي أصيبت بالجنون. سألها يالو عن الخيّاط، وعن مكان وجود أبيه، فجنّ جنونها، ذهبت إلى أبيها وبدأت في شتمه، وجرّته من غرفته جرّاً. كان الكوهنو يلبس البيجاما البيضاء المقلّمة بخطوط زرقاء، حين جرّته ابنته من يديه. كان يترنّح

كأنّه يرجوها وهي تأمره بمغادرة البيت، وهو يبتلع كلماته ويقول أشياء غير مفهومة، ويحلف بجميع القدّيسين أنّ قصده كان شريفاً، وأنّه فقط أراد أن يشرح لحفيده عن أهميّة الكلمة الصادقة. وفجأة جثا الكوهنو على الأرض، ومدّ يديه كأنّه يصلب نفسه، وانهمرت دموعه.

غارت الحكاية في ذاكرة يالو، ولم تطفُ إلاّ هنا، أمام هذا المحقّق الأبيض، بأنفه الأفطس وعينيه الغائرتين في محجريهما.

رفع المحقّق إصبعه في وجه يالو كأنّه يريد أن يقول شيئاً، ربّما قال، لكن يالو لم يستمع إلى كلامه، كان يالو يسأل نفسه ذلك السؤال الذي ارتسم أمامه كأنّه يقرأ في لوح المدرسة الأسود.

لماذا لم يفعل إميل كما فعل أفرام؟

أفرام كان شجاعاً. قال لحفيده إنّه خصاه. «جاء مثل الدّيك المنفوش وخرج مكلّلاً بالعار، دخل ديكاً وخرج دجاجة، لم أفعل شيئاً، فقط رفعت سلاح الكلام في وجهه، الإنسان يا ابني ضعيف أمام الكلمة، لأجل ذلك لم يجد الإله الآب إسماً يطلقه على ابنه سوى الكلمة. شو يعني كلمة الله؟ يعني سرّه وحقيقته. ابنك هو كلمتك، وأنت كلمتي يا ابني، كن كلمتي، مثلما كان الابن كلمة الآب».

بعث أفرام في طلب الخواجة الياس الشامي. اعتقد الخيّاط أنّ الكوهنو يريد أن يخيط قمبازاً أبيض تمهيداً لارتقائه إلى رتبة رئاسة الكهنوت، كما قال لجميع أبناء رعيّته : «بكرا، بعد سنة، سنتين، ثلاثة، رح تصيروا تندهولي يا سيدنا». ومرّت الأعوام، وبقي الكوهنو ينتظر، فهو منذ وفاة زوجته بعد تلك الرّحلة إلى حمص استجلاباً للشفاء من مار إليان، قال للجميع إنّ هذه إرادة الله. لم يذرف دمعة واحدة في مأتم زوجته، وقف يتقبّل التعازي، وبدل أن يقول الكلمات التقليديّة مثل : العوض بسلامتكم أو تعيشوا، قال عبارة واحدة : المسيح قام. وكان ينتظر من المعزّين أن يجاوبوه : حقّاً قام. قال الكوهنو إنّ الله افتقد عبدته، ويقصد الزوجة المسكينة التي ماتت بالسرطان، لأنّ هناك حكمة لا نعرفها نحن البشر. المصيبة افتقاد، والله يفتقد عبيده بالمصائب، وربّما كانت هذه المصيبة افتقاداً من نوع خاص، كأن يريد الله شيئاً نجهله.

بالطبع لم يقبض أحد كلامه في شكل جدّيّ، فالله، عزّ وجلّ، لم يكن محشوراً على بلاط من أجل أن يجعله راعياً لشعبه المسكين. ولكن، رغم نظرات الاستهزاء، ظلّ الكوهنو أفرام يحلم برئاسة الكهنوت. احتلّه الشّيب، وافترسته الكهولة، وهو يداوم على الصلوات، في انتظار اللحظة الآتية.

جاء الخيّاط، وهو يعتقد أنّه سيمازح الكوهنو بقضيّة المطرنة، عندما وجد نفسه أمام الامتحان الأصعب في حياته. كان الخيّاط الياس الشامي في السنّين من عمره،

يوحي بالشباب الدائم، ويبتلع كرشه من أجل أن يبدو رشيقاً، ويبتسم بملء شفتيه من أجل أن يرى النّاس أسنانه النظيفة البيضاء، فالخيّاط كان من أوائل سكّان حيّ المصيطبة في بيروت، الذين اكتشفوا طبيب الأسنان الأرمنيّ نوبار بخشيجيان، واستعاض عن وضع وجبة أسنان اصطناعيّة، بمجموعة من جسور الأسنان الثابتة، التي توحي بأنّها أسنان طبيعيّة.

جلس الخيّاط بين يديّ الكوهنو، مثلما طلب منه أن يفعل :

«تعا يا ابني، واقعود بين إيديّ». أحنى رأسه الذي تصبغه الحنّة بلون مائل إلى الاحمرار، وقبل اليد التي تشبه غصن شجرة يابسة، ثمّ استمع إلى أغرب طلب، وأجاب أغرب جواب.

«أنت بتحبّ البنت، مش هيك»؟

لم يفهم الخيّاط السؤال، أو ادّعى عدم الفهم : «أيّ بنت يا أبونا»؟ قال.

«أنت بتحبّ غبريال، بنتي غابي، وأنا بعرف كلّ شي».

لم يعرف الخيّاط ماذا يجاوب، فإذا نفى فإنّه سيبدو حقيراً في عينيّ هذا الكوهنو الكهل، الذي يرى ابنته الوحيدة الباقية تنزلق إلى العدم في علاقتها مع هذا الرّجل، وإذا قال نعم، فإنّه لا يستطيع أن يتوقّع ماذا سيطلب منه الكوهنو. لذلك اكتفى الخيّاط بهزّ رأسه إلى الأسفل من أجل أن يترك للكوهنو أن يفهم ما يريد.

«إذن خدها».

...

«أنا عم قلّك خدها، شو ناطر»؟

«شو»؟

«خدها يا ابني، أنا بدبر الجانب القانونيّ، بطلّقها من زوجها لأنّو صرلو عشر سنين غايب، وهيك بصير فيك تتزوّجها».

«بس أنا مزوّج».

«منطلّقك أنت كمان».

«أنا»؟

«نعم إنت».

«بس صعبة يا أبونا، إنت بتعرف هيدي الأمور بتاخد وقت عند الرّوم».

«منعملك سرياني، وهيك منطلّقك بـ ٢٤ ساعة».

«أنا صير سرياني»!

«ليش السريان مش معبينلك عينك»؟

«السريان على راسي يا أبونا، بس....».

«بس شو»؟

قال له الكوهنو خذها، فأطرق الخيّاط طويلاً قبل أن يجاوب:
«لوين بدّي أخدها يا أبونا»؟
«خدها لعندك وعيش معها بالحلال، بالحلال بالحرام مش مهمّ، لازم تلاقي طريقة حتّى تاخدها. هيدا يلّلي عم بصير حرام وما بجوز».
سكت الرّجلان طويلاً وغرقا في الصّمت الذي قطعته غبريال حين دخلت إلى الصالون حاملة صينيّة القهوة.
«قعدي با بنتي»، قال الكوهنو.
جلست غبريال، وكان كلّ عضو في جسمها يرتعش.
«قلتلّو ياخدك، قلتلّو إذا بتحبّها خدها»، ثمّ نظر إلى الياس وسأله : «شو قلت يا ابني»؟
«ما بعرف»، أجاب الياس، بعد أن رشف قليلاً من قهوته التركيّة الممزوجة بماء الزّهر.
«شو ما بتعرف»؟ قال الكوهنو.
«ما بعرف يا أبونا، لا خدها أنتَ». جاوب الياس بصوت يشبه حشرجة خرجت من أعماقه.
«شو قلت»؟ سأل الكوهنو.
«والله ما بعرف شو بدّي قول».
«لا، رجاع عيد، ما سمعتك منيح»، قال الكوهنو.
...
«قلتلّي أنا أخدها... أنا»!
«أنا ما بقدر»، قال الياس.
«قلتلّي أنا آخدها، ما هي بنتي، شو هالحكي، قوم يا خرا، كنت مفتكرك رجّال طلعت خرا، قوم وحلّ عنّي وإيّاك ثمّ إيّاك تقرّب صوب بنتي، بكسر لك راسك».
لا يعلم يالو كيف انتهت الزيارة، ولا كيف خرج الياس الشامي من البيت، لكنّه يتخيّله يخرج محدودباً ومتعثّراً بقدميه.
«دخل شابّاً وخرج كهلاً»، هكذا كان سيخبر شيرين، لكن شيرين لم تستمع إلى حكاية أمّه. كان حين يلتقي بها، تكون مستعجلة وخائفة وتريد العودة إلى البيت. كان يريد أن يقول لها إنّ على الرّجل أن يأخذ المرأة التي يحبّها. لو تجرّأ إميل وقال له خذها، لأخذها، كيف يتركها؟ يقولون له أن يأخذ فلا يأخذ؟ هذا محال. والآن لو قال له المحقّق خذها لأخذها. لكنّ المحقّق قال إنّه يعرف كلّ شيء، وكلّ شيء يعني أنّه يعرف عن مدام رندة. هذه لا، هذه لن يأخذها. تراءى له المحامي ميشال سلّوم أمامه، رآه يجلس معه أمام المدفأة في القبلا ويقول له أن يأخذ رندة، عندها سيقول يالو : «لُوْ.

لا، خذها أنت، أنا لا أريد».

أمّا شيرين فشيء آخر. لن يقول له أحد خذها، فعندما تحبّ المرأة فإنّ الأمور لا تجري هكذا. أمّا هناك في القيلا، حين يأتي الخواجة ميشال، فإنّ يالو كان يخاف ويشعر بارتجافة الياس الشامي في يديه. يعود الخواجة ميشال من رحلاته في فرنسا أو في الخارج، ويطلب من يالو الصعود إلى القيلا. يصعد يالو وهو يحمل على ظهره انحناءة الياس الشامي ويخاف من أن تفلت تلك العبارة من فم معلّمه. فهو متأكّد من أنّه لا يستطيع أن يأخذها، كما أنّه لا يريدها. لكنّه كان يذهب إليها حين تدعوه، وينام معها حين تريده. ويشعر معها أنّه داخل لحظات تسرقه إلى عالم لا يدري كنهه، وحين سيحاول كتابة تلك اللّحظات في الزنزانة، وليس أمامه سوى كومة من الأوراق البيضاء أعطاه إيّاها المحقّق، لن يعرف ماذا سيكتب، هل يكتب أنّه كان يشعر بأنّه يدخل ناراً من الانفعالات التي تخبزه؟ أم يكذب ويقول إنّه كان لا يحبّ ممارسة الجنس معها؟ أم ماذا؟

يالو كان يتقلّب في نار المدام ويصير حادّاً ومروّساً مثل رمح، وكانت تصرخ به أن يطعنها برمحه، وكان يترنّح ويتوهّج ويصفر مثل ريح هوجاء، وكانت تئنّ وتقول له أن يقول إسمها : «قول رندة، قول رندة». وهو يقول وراءها، وهي تقول. حتى صار يسمّى الجنس ترنداً. يترندد إليها، ويترندد في انتظارها، ويترندد وحده، ويترندد في الحمّام.

«ما تطلع لفوق إلاّ لمّن إندهلك». قالت له.

يطلع حين تدعوه، وينتظر حين لا تدعوه، وتأتي إليه حين يحلو لها، وتقول إنّها مشتاقة إلى الطبيعة.

«طالع على بالي نام مع ريحتك»، قالت له حين أتت إلى بيته الصغير في المرّة الأولى، وترنددت في سريره، مثلما كان يترندد في سريرها، وقالت إنّ رائحته هنا تسحرها، وأنّها تحبّ رائحة الزعتر الممزوجة برائحة الصنوبر، وهو يترندد بها ويرمحها، ويقول لها «ما رأيك لو تبادلنا الأمكنة انزلي أنت لهون وأنا بطلع لفوق». وتضحك وتقول إنّه مهضوم، وأنّها تحبّه لأنّه يضحكها، ثمّ تمضي. تذهب إلى فوق إلى المغطس المليء بالمياه الساخنة والصابون، وهو يقف تحت الدّوش مرتجفاً من البرد، في بيته.

«كيف بلّشت تقنّص النّاس»؟ سأله المحقّق.

«أنا ما بحياتي اشتغلت قنّاص بالحرب يا سيدنا»، قال يالو.

«حاج عاملّي حالك مسكين، أنا عم بسألك عن الحرج والسيّارات والنسوان. كيف بلّشت تلقط سيّارات»؟

صحيح كيف بدأ؟

كيف يجاوب على سؤال مبهم كهذا السؤال.

«بلّشت هيك بالصدفة، شفت سيّارة ونزلت».
«لوحدك»؟
«نعم، لوحدي».
«وبعدين»؟
«بعدين ضلّيت لوحدي».
حين يحاول يالو أن يتذكّر يرى نفسه وحيداً، ويرى الليل.
كيف بدأ الليل؟ هل يمكن لأحد أن يسأل الليل كيف صار ليلاً؟
كان يريد أن يقول للمحقّق أنّ القنص الذي سأله عنه يشبه الليل. لكنّه شعر بحلقه جافّاً، ولم يجد الكلمات. هكذا كان، يفتقر إلى الكلمات حين يريد أن يحكي، وأمّه تقول إنّ لسان ابنها ثقيل، لكن يالو لم يكن يشعر بثقل لسانه، كانت الكلمات تعلق في زلعومه، وبدل أن يبصقها كما يفعل جميع النّاس، كان يبتلعها، ولم ينفع البحص أو الصلوات أو النذور.
حين يتذكّر يالو تلك الأيّام، يرى شخصاً آخر. يرى طفلاً يلبس كلمات أمّه، يراه بكلماتها التي تنزلق من حوله، وهو عاجز عن الحكي. تبدأ الكلمة في التكوّن في فمه، يشعر بها كاملة، ثمّ يحاول، لكنّها تنزلق إلى داخل زلعومه، ولا تخرج، وهو يشدّ حتى تبرز شرايين عنقه، وأمّه تقود الكلمة بعينيها، ثمّ تراها كيف تنزلق إلى الداخل ولا تخرج إلاّ متقطّعة، فتبدأ في الوعظ :
«ولو يا حبيبي، ولو، ما قلتلّك، فهّمتك أنّه لازم تطلّعها لبرّة، جرّب بزوق، يلّله بزوق، شفت كيف البزقة بتطلع كلّها، هيك الكلمة لازم تطلع متل البزقة. يلّله جرّب».
وكان يجرّب، يبتلع كلمته وبصاقه، ويشعر أنّه سيصبح أخرس عندما يكبر.
وهناك بصقها.
في الثكنة، قرب المتحف، حين صرخ بأنّه صار تيساً مثل التيوس. قال له طوني أن يبصقها، فبصقها، وتعلّم كيف يبصق.
الحرب هي أن نبصق، هكذا سيقول، لو طُلِب منه تحديد الحرب.
لكنّه لا يعرف أن يقول هذه الكلمات الكبيرَة أو يكتبها. يعرف أن يبصق. وحين بصق لم تعد الكلمات عالقة في زلعومه، بصق فصار تيساً أي بطلاً. صحيح أنّه عاد إلى ابتلاع كلماته بعد ذلك، لكنّه كان يعرف السّبب، لذلك لم يخف من الخرس. عادت إليه التأتأة بعد أن سرق هو وطوني مال الثكنة وهربا إلى باريس. هناك ذاق يالو طعم الغُربة والتشرّد واشتاق إلى الحيوان الذي كانه. يالو لا يوافق على أنّ الحرب عمل حيوانيّ، إنّها في الأساس بطولة، لكنّ البطولة مستحيلة دون شيء من الحيوانيّة. التدريب العسكريّ لا يمكن أن يتمّ، دون إيقاظ الذئب الذي في داخلك.